حياة الرَّماد

رواية

مجدي يونس

حـيـاة الـرَّمـاد
المؤلف : مجدي يونس

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : أغسطس 2018
رقم الإيداع : 2018/15826
الترقيم الدولي : 978-977-769-227-4

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم
- من صبري أبوعلم - عمارة أنور
وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247

إهداء:

إلى كل المخلصين.
إلى فاعلي الخير، أينما كانوا.
إلى المتفائلين في الحياة،رغم قسوة ما يعانونه .
إلى العصاة، والمذنبين، وعتاة المجرمين، وأساطين الفجرة والملحدين، فباب التوبة مازال مفتوحًا.

(1)

البحث في الماضي

كانت أيَّام ما قبل الانتحار؛ هي أصفى الأوقات في حياته كلها، التّي امتدَّت لخمسة عقود ترنَّح فيها بين الحب والبغض، بين اليأس والأمل، بين الفرح والحزن، بين الغدر والوفاء .

إلا أن هناك شيئًا لم يجد له مقابلًا في حياته، ساح فيه بوعيه، وبكامل إرادته حتَّى أدمنه، وصار توأمه المتلاصق، ساخ فيه بجسده وبعقله حتَّى خنقه، حاول التحرُّر منه كثيرًا إلا أن شهوة الانحراف كانت أقوى منه، ومن إرادته الواهنة التِّي ذابت في شهوته ....

كانت تلك الأيّام ـ أَعني، أيّام ما قبل الانتحار ـ هي الأوقات؛ التِّي أَحس فيها بعمره الذي مرَّ بين أصابعه دون أن يشعر.

شعر أن حياته هي فقط هذه الأيّام، التَّي رأى فيها خمسًا وأربعين سنةً من عمره، تمرُّ في ذاكِرته وفي تلك الأوراق المتلاحقة التِّي يُسمِّيها مذكَّراته.

كانت الصور في حياته تمرُّ مرورًا شتَّى ؛ منها ما يَدُرج، ومنها ما يخطر، ومنها ما يهدج،ويدلف، ومنها الذّي تلاشى فلم يعد يرى أثره ..

لم يكن مرور تلك الصور والأيّام، لم يكن مرورًا عابرًا، بل كان يقف عند كل لحظة مرت في حياته يتفحَّصها مسائلًا نفسه:-

كيف حدث هذا؟!

وكيف فعلت ذلك الأمر؟!

فيلوم نفسه ويزيد لومها حتَّى يلعنها، فتترسخ في نفسه رغبة الانتحار التِّي ظل منتظرها كثيرًا، منذ أن بلغ الثلاثين من عمره، ولكن كان هناك ما يحول بينه وبينها حتَّى إنّ ما كان ينتظره كثيرًا، وجاء وقته، جاءت الأيّام الأخيرة السابقة لتحقيق تلك الرغبة.

أيّامه الأخيرة التّي عاشها بكلِّ جوارحه، في كلّ لحظاتها متذكِّرًا الماضي.

وقف أمام مذكَّراته محدقًا فيها مسجدًا ببصره على المكتوب على غلافها.

ـ «تجاربي بين الفناء والبقاء»

أحمد شريف

ثم حرّك بصره قليلًا، ونظر لأختها المجاورة لها على مكتبه، وهي مذكّرات والده المنقوش على غلافها:

ـ «حياة الرَّماد حياتي»

شريف محمد الوِحِيدي

لم يطل نظره إليها، ومال برأسه قليلًا، ورأى في ذهنه صورة قريبة نسبيًّا مرّ عليها عامًا واحدًا فقط .

عندما ذهب إلى قريته للهروب من ضغوط الحياة والعمل، والبحث عن شيء ضائع في ماضيه وماضي أبيه، تلك القرية التي قاطعها منذ ما يقرب من عشرين عامًا،رافضًا أيّ علاقة وأيّ رابط بينه وبينها، مقرضبًا كلّ صلاته بها، وكأنه من لاجئي العصر الحديث لا أهل ولا وطن، رغم أن جذوره وأرومته تسيخ في أرض هذه القرية منذ زمن بعيد، فأجداده لأبيه هُمْ فراعنة هذه القرية القدامى، منذ قرنين من الزمان، بعد أن ذبح جده السابع (عزوز الوحيدي) وأصحابه من اللصوص (أسرة نجيب العدناني) في مذبحة مروعة اندثرت فيها أسرة بكاملها، (عشرون من الرجال وخمس وثلاثون من النساء وأكثر من ستين صبيًا وصبيةً في سن الزهور) .

واستولوا على جميع ممتلكات أسرة العدناني ؛ من أموال ووأراضٍ أكثر من ألفي فدان، وغير ذلك من الأطيان والعقارات والدواب.

كانت هذه المذبحة كفيلة بأن توطّد أقدام وأركان عصابة الوحيدي في هذه البلدة، و زرعت الخوف والفزع والرعب في قلوب أهل هذا البلد الفقير .

وعندما وصل هذا الحفيد (حفيد الوحيدي: أحمد شريف)، الذي تجري في عروقه كثير من صفات عصابة الوحيدي، حتَّى قيل إنّه يشبِه في كثير من صفات جده السفاح التي توارثت العائلة صفاته وسماته، وبعض صفاته الشكليّة، لكن في أحمد شريف كان كثير من الصفات الخُلقيّة والخَلقيّة مغروسة فيه .

عندما وصل أحمد شريف الوحيدي إلى بلدته في سيّارته (تويوتا كورولا الفضية)، عندما وصل ونزل من السيّارة أمام ڤيلا والده، استقبله أبناء عمومته وذويه استقبالًا كبيرًا، كأنّه عائد من سفر، وكيف لا؟! وهو لم يزر القرية منذ ما يَقرُب من عشرين سنةً أو أكثر، وتعالت أصوات الرصاص تصرخ في الفضاء مُعلنةً عن الفرحة بقدومه، ومع ذلك لم يبالِ بذلك الاستقبال، وعاملهم ببرود وأنانيّة كعادته، وخاطبهم بجفاف وغرور ممقوت من طرف لسانه رادًا بجملة واحدة:

ــ ما هذه الضجَّة المزعجة؟

وتركهم يثرثرون اندهاشًا من مقابلته الجوفاء، وولج الفيلا الكبيرة التِّي ورثها عن والده، وأرتج بابها عليه ....

نفض المكان ببصره، ثم هوى جالسًا فوق كرسي عتيق ذهبي اللون يقال:إن جدّه سرقه من أحد قصور أسرة محمد علي، وإن كان لا أحد يعلم حقيقة هذا الأمر إلا أن قدم هذا الصالون، يعطي له بريقًا وأصالة وعمقًا تاريخيًّا، فمازال على حالته متينًا قيِّمًا، رغم ما يعلوه من أكوام الأتربة والأغبرة التّي ملأت الفضاء بمجرَّد أن جلس «أحمد شريف» عليه، لم يعبأ بهذا الغُبار والتّراب وأطلقها زفرة ألم وتعب نفسي :

ــ آه ....

وأغمض جفنيه، وجال بتفكيره في دهاليز عقله المعطلة، وفجأةً، هبّ واقفًا جاحظ العينين، وكأن أفعى لدغته، وأسجد ببصره ثمَّ دار به في جنبات المكان، وهو ساكن ثابت في مكانه .

علّق بصره على باب إحدى غرف الفيلا الداخليّة، وأسفَّ النظر إلى مقبضه...

كانت يده الصغيرة تضغط عليه وتفتح الباب، ويدرج إلى داخل الغرفة، وهو مبتسم،لكنه قوبل بكلوح وجه أبيه، الذي كان منكبًّا في الكتابة، وعندما رآه انتصب واقفًا غاضبًا، خلع نظارته الطبية ذات العدسات الواسعة والهيكل البنّيّ، وصرخ في وحيده:

ــ ما الذي أتى بك إلى هنا؟ اخرج الآن وإلا سلخت وجهك

تسمرت قدما الطفل في الأرض،ينظر إليه في استغراب، وقد انقلبت بسمته وجومًا وذهولًا لجم فمه واتسعت عيناه، معبرة عن حالة الرعب التّي عاشها الطفل في هذه الدقائق ... والطفل صامت ....

زاد غضب الأب، وتحول من مكانه مرجعًا كرسي مكتبه قليلًا للخلف، وسار نحو الطفل بخطى سريعة، وشفنه في غضب ثمَّ لطمه على وجهه، وقال:

ــ ألم أقل لك اخرج من هنا؟!

لم يصرخ،ولم يخرج، وما كان منه إلا دوام النظر إلى والده في حالة مزرية، فطما الغضب في عيني والده، وزبنه في صدره وهو يهزع كالرعد:

ـ اخرج ..

فخرَّ الطفل على ظهره كصخرة هوت من علو؛ أحدثت صوتًا مزعجًا، فدخلت الأم مسرعة على إثر الصوت، فوجدت ولدها منطرحًا على الأرض، ووالده عند قدميه ينظر إليها في غضب وضيق ...

فهوت إليه ترفعه رويدًا رويدًا من رأسه، وهي تشفنه في كره قائلة:

ــ أتُريد أن تقتل ابنك يا شريف، ماذا فعل لك كي تنهره وتدفعه هكذا؟

ــ دخل عليّ مكتبي بدون استئذان .

ــ إنّه طفل صغير، ولم يدرك بعد .

ــ ولكنكِ لستِ صغيرة، وأظن أن إدراكك ناضج جدًا، وعلى قدر كبير من الوعي والانطلاق

تُبْدي اندهاشة مشوبة بالقلق من كلامه، وتقول:

ــ ماذا تعني بكلامك هذا؟

نظر إليها، وهو يضغط على شفتيه ثم قال:

ــ أنتِ تعلمين وأنا أعلم .

تربت على ظهر ولدها، بعدما أوقفته مُقبلة إياه، وتهمس ناحية أذنه، هزّ على أثرها الطفل رأسه، ويتجه نحو باب الغرفة خارجًا منها، وهي تتبعه ببصرها، ثمَّ عندما خرج تلتفت إلى «شريف» وقد أدار لها ظهره،ثمَّ أدار جسمه كاملًا،عندما قالت:

ــ أنا لا أعلم ماذا تعني؟ وعن ماذا تتكلم؟ وإلى ماذا ترمي بكلامك الخبيث هذا؟

ــ لا، أنتِ تعلمين .

ــ أعلم ماذا يا ظالم .

رفع يده ليلطمها على وجهها، وهي تحدق فيه، ثم نظر إليها وقد أبطأ

حماسه ثم أنزلها ممسكًا بكلتا يديها بقوة وهو يهزهما ويقول:

ــ تعلمي بأني مازلت أحبكِ،اصدقيني القول، يا إخلاص وصارحيني

تنزع يدها من قبضته وهي تقول:

ــ أنت مجنون

.....

قبض على المقبض بيده اليمنى؛ ليفتحه فلم يستطع، فقد كان صدأ السنين قد استشرى في المقبض وغلفه ، فاستعان بيده اليسرى مع اليمنى، ولكن دون جدوى، فدخل في عراك مع الباب تسلح فيه بجسده، واستجمع قوته التِّي وهنت، ودعَّه بجنبه الأيمن، ففتح الباب على مصراعيه مطلقًا صوت الألم من قوة الدفعة.

نفض غرفة المكتب ببصره قبل أن يحرك قدميه داخل الغرفة، وأول شيء وقعت عليه عيناه هي مكتبة الوالد الضخمة ..

هدج نحوها في بطء حتى وقف أمامها،وهي شاهدة على مر السنوات وكرِّ الأيَّـام والليالي بالتّراب الذي يكسوها كأغطية أثرية وأجربة هندية،وتنقَّل بعينيه على كتبها كأنَّه يبحث عن شيء بعينه، ولَما لم يجده، أخذ في إخراج الكتب من محبسها، كتاب تلو الكتاب يتصفحه ثم يرميه على الأرض،حتى امتلأت أرض الغرفة بالكتب، فملأ الغضب عقله، فأخذ يصيح وهو يركل الكتب بقدميه:

ــ أين هي إذن!

ــ أين نتاج حبسته الطويلة في هذه الغرفة؟

ــ أين أسراره العميقة التّي كان يحتفظ بها في هذا المنفى،الذي لم يكن يدخله غيره؟

حيث كان هذا المكان السبب دائما في ضربي لدخولي فيه، على حين غفلة منه أو وهو فيه قليلًا، حيث كنت ألعب هنا في هذا المكان.

كنت ألعب بـ ...

نعم، أوراقه التّي كانت تحوي أخطر أسراره، كنت ألهو بصفحاتها آه، تذكّرت ....

كان صغيرًا في الثامنة من عمره أو أكثر قليلًا حين دخل على حين غفلة من والده، وفتح درج مكتبه، وأخرج أوراقه المكنونة الـ ....

تذكّر .. جرى مسرعًا على المكتب، وحاول فتح الدُّرج لكنه كان مرتجًا بإحكام كباب الغرفة ....

احمرَّت عيناه من الضيق، ومال برأسه للخلف؛ ليكمل ما كان من أمره وأمر والده عندما دخل الغرفة، ووجده جالسًا على مقعد مكتبه الذهبي يتصفح أوراقه الخطيرة، غلى الدَّم برأسه وجرى عليه يصرخ فيه:

ــ ماذا تفعل هنا يا ولد؟

وقف مذعورًا وقال متلعثمًا:

ــ أنا آسف يا بابا

ـ آسف ! (ورأى أوراقه مفتوحة) ـ ما هذا؟

كنت تقرأ في مذكراتي؟

قال في رعب:

ــ أصل ...

ضغط على أسنانه، وزفر وشهق وصكَّه على وجهه،فهوى على الأرض وأنفه تقطر دمًا من هول الصكَّة .

قام بتحسس أنفه بيده، وكأن هذه الصكَّة اليوم، وليست من زمن بعيد، وبدأ الخوف يدب في وجهه كأن أباه قام من رقدته، ووقف أمامه يعاتبه .

لكن هذا الخوف بدأ يتلاشى تدريجيًّا من قوة الهم الذي يسيطر عليه، فقام مسرعًا على المطبخ يبحث هنا وهناك؛ لعله يجد آلةً حادةً أو سكينًا يفتح به الدرج، فوجد سكينًا قديمةً، قد أكل الصدأ معظمها .

ودخل في عراك مع درج المكتب بهذه السكين حتى فتحه، وأخرج ما فيه على سطح المكتب (ساعة والده القديمة، ومجموعة أقلام وألبوم صور)

ولم يجد ما كان يبحث عنه، لم يجد الأوراق التي كان ينقب عنها، مما طما غضبه، فقذف بمجموعة الأقلام في الحائط المواجه له، فتبعثرت الأقلام في الغرفة .

نظر حوله ثم قال:

ــ لا .... إنها في هذه الحجرة، ولن أخرج منها حتَّى أجدها، كي أهتك أسرار والدي الدفينة ....

ونظر حوله يمنة ويسرة ثم قال:

ــ ولكن أين هي في هذا المنفى التعس؟

ودار بعينه في جنبات الغرفة، وفي أقطارها، وهو يفكر ثمَّ قال:

ــ لا .... ليست في هذه الحجرة، أبي لم يكن غبيًا إلى هذه الدرجة، ربما هي في غرفة النوم أو في المطبخ، أو ربما في المخزن المشحون فيه آثاثنا القديم .... سأقلب الدار كلها وأجعل عاليها سافلها حتَّى أعثر عليها .

بات وهو حائر يفكر قد رزمه الحزن، ولما أصبح، جعل عاليها سافلها وأمطرها بوابل من الغضب الفاحم، حتَّى كاد أن يجن، لولا أنه رأى شيئًا استوقفه، عندما رفع السجادة الإيرانية التِّي تُزين وسط حجرة نوم والده سجادة حمراء عُدْمُلية، ترجع إلى القرن السابع عشر ذات الألوان الحيويّة؛ أبرزها الأحمر بنقوش إسلامية على الأطراف وفي الوسط، وتتميز بالحياكة الناعمة فقد تغوص فيها قدمك، ولكن هذا الجمال، وهذه الأناقة في هذه السجادة كان مدفونًا في هذا التراب، فقد كانت مرزومة بكيلوات من الأتربة والأغبرة التِّي طفحت الحجرة بها عندما رفعها فجعل يسعل حتَّى كاد أن يتقيأ..

ولما صفا جو الحجرة، ونظر إلى البلاط الفضّيّ الذي كانت تواريه السجادة، رأى الشيء الذي استوقفه ...

لم يُلاحظ ملاطا بين مجموعة من البلاط ترسم هرمًا، ورأى بينها فروجًا وشقوقًا واضحةً.

ولما دقق النظر، وجد أن هذه المجموعة من البلاطات تعلو عن مستوى أرضية الحجرة ببعض السنتميترات .

اختلجه شعور ضاحك، فانثنى يكتشف حقيقة الأمر، وقمعها

بقبضة يده، فسمع صوتًا أجوفًا، فابتسم وهرول خارجًا، وعاد بالسكين القديمة، وأخذ يرفع بها الأربع بلاطات حتّى برقت عيناه ....

برقت عيناه لما رأى حقيبة جلد سوداء صغيرة يعلوها مفتاح قفلها أنقذها بمفتاحها من محبسها، ناظرًا إليها نظرات ذي علق، يحضنها، وهوى بها فوق سرير والده المغبر والمترب، يقبلها وقد ثرَّت عيناه بالدمع من الضحك ..

ولما هدأت نفسه من الدهشة والفرحة نصب ظهره، وجلس متربعًا على السرير، وجاء ليفتح الحقيبة السوداء لكنه لم يستطع، فقد صدأ المفتاح وصدأ القفل فقام بقطعها بكلتا يديه ممزقًا إياها .

وأنقذ منها حياة الرماد، حياة والده، وأخرج مذكّرات والده التي تحوي أخطر أسراره، والتّي قال عنها ولده «أحمد» في مقدمة مذكّراته الخاصة به، والتي سماها «تجاربي بين الفناء والبقاء».

قال في الصفحتين الأولى والثانية:

ـ «منذ أن مات والدي منذ ما يقرب من عشرين سنة،وأنا قاطع صلتي بكل ما يربطني بمسقط رأسي ورأس أسرتي الضخمة حانوت ؛ لمقتي الشديد وبغضي اليحموم لأسرتي بل لبلدتي وناسها وجميع ساكنيها، مما جعلني أهرب من أسرهما متناسيًا كل ما يربطني بأهلي وبلدتي، متبرئًا منهم، ومن أعمالهم التّي شاهدت بعضها عندما كنت أتردد عليها في فترات متقطعة، وقد كان انغماسي في غيابات الشهوة من أكبر العوامل في نسياني لأهلي ولبلدي بالإضافة إلى انشغالي بدراساتي، ثم بعملي الخطير

بعد ذلك .

مع أني كنت على يقين من أن هناك شيئًا ينقصني يعيش في بلدي، ويقطن فيلتنا القديمة، فبعدما مر بي من قوارع وطوام ودواه كما سيظهر في سطور مذكَّراتي، شعرت بنقصاني، وبما ينقصني وأحسست بمصيري المشئوم، بل ورأيت مصرعي أمام عيني عقلي.

رغبت في تكميل ما ينقصني، نشدت الكمال مع أني أنقص الناقصين، ورغبت في العلو مع أني في أسفل السافلين، ففرغت للقيام برحلة قصيرة إلى بلدتي كي ألملم ما تبعثر مني، ومن أبي فيها، وكي أقف على حقيقة حياتي في الدنيا قبل أن أفارقها، وكي أفك طلاسم ورموز حياة أبي الغامضة، وأهتك أسراره الدفينة، بعد ما رأيت من المتشابهات والمتطابقات الكثيرة بين حياتي وحياته خاصة، ما حدث لي في الخمس سنوات الأخيرة، وماتعرضت له من مصائب ونوازل، بعدما غرقت في بحر الرذائل والعدوان مثل والدي العزيز، وصدِّق ما قيل من أن «هذا الشبل من ذاك الأسد»

كان لابد لي بعدما عاركت الحياة، وعاركتني، وهزمتها في بعض المواقع، وهزمتني في أغلبها، بعدما أخذت نصيبي منها، وفكرت في المصير المشئوم لحياتي الذي كان يتراءى لي كثيرًا أمام عيني .

كان لابد من الرجوع إلى حيث ولدت، وحيث ولد أبي وتربى التّربية الريفية قبل أن يتحضر ويتمدَّن ويذر ما كان عليه من الأخلاق والقيم والشرف .

كان لابد من رجوعي؛ لأحصل على إرثي من والدي الذي أهملته وتركته منذ أن توفي ولم أعيره أي اهتمام .

لم يكن إرثًا ماديًا بالدرجة الأولى، لم يكن مالًا ولا أرضًا ولا فيلا هرمة، لأنّي كنت أعلم أن أبي ترك لي إرثًا هو أعظم وأهم من ذلك؛ وهو أسراره الخطيرة وأستاره المكنونة المسطورة في مذكراته الثمينة، والتّي عثرت عليها بعد عناء طويل، ومشقة بالغة .

وبعثوري عليها تمت، وانتهت فترة المخاض لمذكّراتي وتجاربي التي في الذاكرة، وآن لها أن تُولد وترى النور، وتصبح حقيقةً مقروءةً ومسموعةً، فتصبح عبرةً لمن يعتبر، وزاجرًا لمن ينزجر، وواعظًا لمن يتعظ، وتسليةً لمن يبغي التسلية، ولهوًا للاهي، وأضحوكةً للضاحك، وبكاءً للباكي، وإثارةً لمن يريد الإثارة، فقد تُقرأ قبل الجماع أو الزنى أو اللواط من أجل الانتصاب والاستثارة الجنسية فتكون أقوى من أعظم فياجرا، أو تكون أقوى وأشدّ استثارة من أفلام البورنو ..

ولكن كان لابد أولا، قبل أن أَخط حرفًا واحدًا في أوراقي أن أهتك وأفض أسرار والدي .....

وتهيأت لقراءتها في جو هادئ، كي أعيش في كلِّ حروفها، وفي كلِّ كلمة من كلمات أبي، وفي كلّ لحظة من أحداث حياته الّتي سردها كلها أو معظمها في مذكّراته رغم خطورة ما فيها .....

(2)

حياة الرماد ... حياتي

«كانت حياتي عبارة عن سلسلة من الانحرافات والشذوذات والمآسي، واصطبغت بلون الضياع الدجوجي، فمنذ أن بدأت أدرج على الأرض، وأنا أتهادى في الآلام والأحزان، وأرفل في أيام عصيبة، وليالي سوداء .

كانت طفولتي تحوي في طياتها رياحًا عاصفة وحرورًا لافحة، وبرودة قارسة، وسيولًا زاغبة، وحجارة صماء هي الحجارة التي بنيت عليها حياتي فيما بعد ..

ومن هذه الحجارة حجر صلد صيخود في قلب أبي «محمد الوحيدي» مما جعله يقسو عليّ ويضربني كثيرًا، كان يضربني أكثر مما يتنفس، يضربني بسبب ومن غير سبب، وكأني لستُ من صلبه ....

كان هذا يؤلمني كثيرًا، ولكن أكثر ما كان يؤلمني هو حنوه ورعايته لأخي عزت الذي يكبرني بعامين، كان يقربه وينبذني يحبه ويبغضني .

لم أكن أعرف السبب، ربما لأنه بِكره أو ربما للشبه الكبير بينهما،

ولكن هذا ليس مبررًا لتناقضه الغريب في التفرقة بيني وبين أخي، وكأنه هو ولده، وأنا لست ولده، فكان يُجلسه بجواره على مقعده في حضرة الأثرياء والأعيان وذوي الوجاهة والمكانة، ويدعني مع أمي، كان يأخذه معه في سفراته وزياراته، وحتَّى خروجه خارج الوطن أو داخله، عندما كان يذهب للاطمئنان على أملاكه وأراضيه الواسعة ...

كان قلبي يتمزق، يكاد يتميز من الغيظ، عندما كنت أرى أخي في جوار أبي، وفي حوزته، وفي رحابه دائما . أما أنا فكنت مع أمي التي كانت على النقيض من أبي، فلم تتوان أو تتردد في سكب حبها عليّ وحنانها وعطفها الذي حرمني إياه والدي العزيز.

ومع حبها الغزير هذا إلا أني كنت أحسّ أن حياتي مازالت ناقصة رغم اكتمال حبها لي، وازداد هذا النقص وبلغ منتهاه حتى صار حرمانًا بوفاة أمي التِّي ماتت أمام عيناي، وفي غيبة أبي، فقد كان مع حبيبه عزت في الإسكندرية يستجمان ويريحان عن كاهليهما عناء ونصب العمل الشاق، وتركاني وأمي نكابد آلام الوحدة والانعزال، وترك أمي تقاسي آلام المرض، وكأن هذه هي رغبته فقد كان يتمنى لها الموت،وكان يتوقع لها تلك النهاية المُفجعة ..

ماتت على ذراعي دون أن تودعني أو تكلمني، وكان آخر عهدي بها هو نظرتها الأخيرة لي قبل انتزاع الروح من جسدها. استمرَّت نظرات حبها لي، والروح تنسل من بين أضلاعها حتَّى لقد شممت رائحة الموت في الحجرة، ورأيت الموت يزرف في عينيها المتألقتين بالحسرة والحزن من

أجلي ....

ماتت وتركتني أكابد آلام الوحدة، وآلام الفراق، وآلام التفرقة والعزل من جانب والدي وأخي اللذين رجعا من رحلتهما على الخبر الحزين..

كان كل ما فعله أبي حزنًا عليها هو إقامة معزى لأمي، وقراءة الفاتحة على قبرها، ثم طواها في غياهب النسيان، وكأنها لم تكن موجودة في حياته وحياتنا من الأساس ....

ماتت أمي وانهدَّ الجدار الذي كنت أحتمي به وأتوارى خلفه في أوقات حزني وكربي وشدَّتي، وصرت فريسة سهلة لأبي ولأخي يتلاعبان بي ويقذفاني لبعضهما ..

كنت أرى نظرات الحب في عيني والدي، تظللن عزت أينما راح أو رجع حتَّى طفح قلبي ببغضهما ومقتهما،واغرورقت عيناي بنظرات مقصعة بالثأر منهما فقد تسنمني بغضهما وكرههما ..

كلّ يوم كان يمرُّ في حياتي كانت تفهّق فيّ الرغبة في الانتقام منهما، ولكن صغر سني وقلة حيلتي وضعفي أمام جبروت محمد الوحيدي كان يعيقني عن تحقيق رغبتي وأجلتها لأجل غير معلوم ..

واستثمرت وقتي في دراستي،فتفوقتُ عليه، فكنتُ من الأوائل ومن المكرمين دائمًا، أما هو فكان يكتفي بالنجاح، فزاد البون بيني وبينه حتَّى ربت غيرته مني وتحول كرهه لي إلى غرابيب سود ....

فكثيرًا ما كان يعتدي عليّ بالضرب على مرأى ومسمع من أبي دون أن

يطرفه أو يمنعه، وربما اعتدى عليّ هو الآخر، ياوليتاه ما أكثر اعتداءاتهما عليّ بالضرب والإهانة والإذلال والإبعاد ، فقد كانا وحشين قاسيين

يحملان في صدريهما حجارة صلدة من الأرض السفلى، عشتُ بسببهما أيّامًا حالكة السواد، بردها الزمهرير، وحرها السموم، عشتها وحيدًا يائسًا حزينًا في حجرتي، كنت منعزلًا داخل نفسي،وعن المحيطين بي .

رضيتُ بعزلتي واقتنعتُ بها حتَّى اعتدت عليها وصارت ملجأ أوراي فيها ضعفي وحقدي وحلمي بالثأر حتى تحين اللحظة المناسبة، فيخرج للوجود يعيث في الأرض فسادًا، ويدمر كل شيء حتَّى لا يذر شيئًا ينبض بالحياة إلا دمره .

هذا التفكير، وهذه الأحلام والأماني التِّي كانت تراودني كثيرًا كانت بسبب والدي لذلك هي خلقت له كي تفتك به .

فقسوة أبي علمتني القسوة، وليتها علمتني القسوة فقط، فقد علمتني شيئًا هو أفظع وأدهى من القسوة، علمتني الانحراف والرذيلة رغم صغر سني الذي لم يتجاوز الثانية عشرة، ورغم تفوقي في الدراسة، وانشغالي بها معظم الوقت إلا أني اعتدت في بعض الأحيان التي ليست بالقليلة أن أرى أمامي تروح وتجي «كريمة» ابنة «حسان الكلاف» الراعي والقائم على شئون أنعام أبي من بقر وغنم وماعز وخيول وحمير، وكان يساعده بعض العمال، ولكنه كان رئيسهم وصاحب كلمتهم .

كانت كريمة مثيرة رغم أن عمرها قد يكون عشر سنوات أو أقل

أو أكبر بقليل، لا أدري، المهم أني أكبر منها، ولكنها كانت مُهرة عربية ذات صدر منفوخ كحبة الكمثرى يهتز، تحركه أنوثتها غير المعقولة، ودبر بفلقتين شبه ممتلئتين على صغر سنها، مما جعلني أشك أن هذه المهرة قد ركبت قبل ذلك.

هذا شك هل حقيقة أم لا، لا أدري؟

إنَّها حركت كل مشاعري الدفينة فهويتها، وتحركت ميولي وشهوتي نحوها، وجذبني إليها هذا الجسد الطاغي ونظراتها الراغبة، لمحت في عيونها رغبة ملحة في الحصول عليّ ولمحت هي الأخرى نظرات الالتهام في عيوني ..

وظللت أترقب وأنتظر الفرصة السانحة كما يتربص الأسد بغزال بريّ صغير يترقبه متى يبتعد عن أمه، ويلهو بعيدًا عنها كي ينقض عليه ويلتهمه .

ظللت أتربص بها، وأترقب أسنح فرصة تكون فيها بمفردها كي أكلمها، وأعبر لها عن مشاعري الثائرة نحوها .

وانتظرت، وانتظرت ..... حتى جاءت الفرصة ...

كنت أستنشق بعض الهواء النقي عبر شباك حجرتي التِّي تعبأت بدخان السجائر التّي أشعلتها سيجارة تلو سيجارة، فكدت أختنق، ففتحت شباك حجرتي فرأيتها تمسك بشاة صغيرة كانت قد هربت منها، ودخلت حديقة الدار الواسعة التِّي يسمونها فيلا كما كان يقول عنها أخي عزت وأبي وغالب أهل البلد، وأنا لا أحب إلا أن أسميها

دارا فهي إن قامت أو قعدت دار، ولكنها دار واسعة وكبيرة شيئًا ما ....

أمسكتْ بالشاة التي ظلت تثغو، حملتها لصغرها واحتضنتها، تمنيت أن أكون أنا موضع الشاة من صدرها .....

أخذتها وخرجت،فهرولت وراءها مسرعًا أطفر من على درج السلم متخفيًا أراقبها فرأيتها تدخل «الزريبة» الخلفيّة مبرك الغنم والماعز، خلف دارنا، تلفت يمنة ويسرة كاللص هل يراني من أحد؟

ثم قلت لنفسي:

ــ ها هي فرصتك العظيمة لافتراس الوليمة والضحية المثيرة

كانت تطعم الماعز والغنم أعوادا من البرسيم تنثرها أمامها، عندما رأتني خافت وتلجلجت ورمت ما في يدها وقالت متأتئة في حرف الميم:

ــ مممم، ماذا تريد يا سيدي شريف؟

خطرت نحوها في بطء، وأنا مبتسم طلق الوجه، اقتربت منها ولكنها تراجعت للخلف حتى لصق ظهرها بجدار الزريبة الخلفي، وتقدّمت نحوها، فرفعت يدها تدفعني وهي تقول:

ــ ابعد عني يا سيدي، أقبل يدك، أرجوك لا تفضحني

ــ أنا أحبك يا كريمة؟

ــ تحبني ! كيف ياسيدي، وهل العين تعلو على الحاجب؟

ــ نعم أحبك، وسوف أتزوجك عندما نكبر، لكن الآن ....

ــ الآن ... ماذا؟!

لم أعد أحتمل وسيضيع الوقت في الكلام، فقد انتصب وكاد أن

يفترك البنطلون، وكثرة الكلام ستنسيه الهدف ويرجع لحالته النائمة، فهجمت عليها أحتضنها وأقبل جسدها المفعم برائحة الماعز والغنم وفضلاتها، وكأني أشتم منها رائحة العنبر،إنَّها الرغبة في الزنا تنسيك أي رائحة كريهة أو قاذورات أو أوساخ على الفريسة، فلم أبال بتلك الأوساخ والقاذورات، وصرت ألعق خدها، وهي تحاول درئي وتقول:

ــ لا، لا ..... سيدي شريف، اتركني أرجوك، ابتعد عني، لا تقطع عيشنًا من هنا، إذا رآنا أبوك سيطردنا من هنا .

خرجت من جسدها ويدي مازالتا ممسكتان بفلقتيها وصدري في صدرها، وقلت وأنا أشهق:

ــ لا تخافي، لن يجرؤ أحد على طردك من هنا إذا .....

ــ إذا ..... ماذا؟!

ــ إذا أريتني فرجك هذا (وأشرت بذكري المنتصب ناحية فرجها) وهاتين الفلقتين

ــ ماذا؟!

ــ إن لم تفعلي سأجعل أبي يطردك أنت ووالدك وعائلتك كلها من القرية كلها.

نظرت إليّ في خوف وهي تفكر ثم قالت:

ــ سأريك ولكن لا تلمسني .

ـ اتفقنا .

وانصاعت لأمري،ورفعت جلبابها الوردي، وأنا أنظر بشهوة إلى

قدميها الممتلئتين من فوق العقب، حتى أسجدت ببصري على ما يواري عورتها .

وأشرت إليه:

ــ انزعيه من على فرجك .

وعندما همَّت بنزعه قلت:

ــ لا تنزعيه، سأنزعه أنا .

وانثنيت وجلست عند قدميها، ومددت يداي تلعب في رجليها تتحسسهما حتَّى أمسكته ونزعته ببطء ورأيت فرجها ذي الشفرتين الممتلئتين، وهجمت عليه أقبله، وفي هذه اللحظة التي ينسى اللبيب فيها عقله، دخل والدها حسان.

صعقه ما رأى، فجرى علينا، دفعني بيديه بقوة فوقعت فوق روث وبعر الماعز والغنم، وصك ابنته على وجهها، وهتنت يداه بالضرب على جسدها حتَّى هوت هي الأخرى على الأرض واتسخت أكثر من روث الغنم وبعره.

انتهزت فرصة انشغاله بضربها، فقمت مسرعًا أقفز من الهرب، وأنا خائف مرعوب ليس من والدها، وإنَّما من أبي الغاشم لو عرف.

وأكيد سيعرف ...

وحدث ما كنت أخافه، فلطمني أبي على وجهي،وزبنني بيده فهويت على الأرض أمام أخي الذي ينظر إليّ في انشراح وشماتة، فغضبت وشاط غضبي وضغطت على أسناني وقمت صارخًا كالوحش المنتفض:

ــ لماذا تضربني؟

قلت وأنا سائخ في البكاء منهمرًا في الصراخ:

ــ أريد أن أعرف لماذا تضربني؟ لماذا تعاملني هكذا؟

ــ ألا تعرف لماذا أضربك؟

ــ أنا لم أفعل شيئًا أستحق الضرب عليه.

ــ وما فعلته مع بنت حسان الكلاف، ألّا تستحق الشنق عليه؟

ــ حسان كذاب، أنا لم أفعل شيئًا مع ابنته .

ــ حسان ليس كذابًا، أنت الكذاب العربيد، وعقابًا لك سأحبسك أسبوعًا كاملًا في حجرتك لا تخرج منها، ولا ترى الشمس حتَّى تتأدب.

وتركني وخلفه أخي وأرتج علي باب حجرتي بالمفتاح، وحبست في حجرتي كاللص، لا أرى الحياة إلا من خلال شرفتها. ومنعت لذات الحياة رغم قسوتها، حتى الطعام لم أستطع أن أختاره، كان يفرض عليّ فرضًا ثلاث مرات يوميًا الساعة التاسعة صباحًا والساعة الرابعة مساءً والساعة التاسعة مساءً .

يُفتح الباب من قبل خادم أبي المطيع «علام» ذي الوجه الأسود العابس، يضع الطعام على الكرسي الخشبي ثم يخرج ويوصد الباب .

كنت أنتظر وقت الطعام على أحر من القيظ، وكأني «كلب بافلوف» المسكين الذي كان يسيل لعابه عندما يسمع صوت الجرس، فكان يسيل لعابي عندما أشعر بقرب قدوم الطعام الذي كنت أقتمه كله، فقد كنت صبيًا خراضمًا يعشق الطعام كثيرًا كما يعشق اللهو والبنات والصور،

كنت طفلًا شهوانيًا متدلها بشتى صور الشهوات.

فأنا أرى أن شهوتي البطن والفرج مكملتين لبعضهما، ولا يمكن بحال من الأحـوال أن ينفصلا عن بعضهما، فشهوة الفرج تقوى وتنتصب بإشباع شهوة البطن، لذلك كنت أنتظر الطعام بفارغ الصبر.

واستمر الحال على ما هو عليه ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع لم يقدم لي طعام الفطور كالعادة، تعجبت وتضايقت وصرتُ أكلم نفسي في الحجرة:

ــ ماذا حدث؟

لماذا لم يقدم لي فطوري كالعادة؟!

أيحقنونه عني كما حقنت عن الدنيا وعن شهوتي؟!

ماذا جدَّ؟ وأين هم؟

أنا لا أسمع لغطهم وتنعيرهم كالعادة، لابد أن هناك شيئًا خطيرًا حدث أسكتهم منعهم عن إحضار طعامي، ولابد أن أعرفه .

وظللت على ناري أكلم نفسي، وعقلي يثع سيولا من الأفكار والظنون السيئة حتَّى سمعت زغاريد تطمو بشدة، فهببت من على السرير، واقتربت من الباب وألصقت به أذناي، وسمعت قلقلة المفتاح في الباب ووقع أقدام تصعد على السلالم المؤدية للدور العلوي، فمددت عيني أنظر من خرتة الباب .

فرأيت والدي يدرج وفي يده فتاة شابة جميلة تمسك بيدها الأخرى أخي عزت.

اندهشت وقلت لنفسي:

ــ من هذه؟

ولماذا تمسك بيد عزت هكذا؟

وماذا تفعل هنا؟

طفقت أحدث نفسي وأنا حائر جائع أحشائي تعتصر وتتلوى من الجوع، فقد أحاطني السعار وغرز فيّ مخالبه وأنيابه، لم أعد أتحمل، فصرخت وطرقت الباب، فلم يستجب أحد، ففار غضبي فطفقت أزخُّ الباب بكتفي مستجمعًا كل قوتي، ورغم جوعي كاد أن ينكسر، لولا أنه فتح فرأيت أمامي أبي غاضبًا وهو في ثياب النوم، وعلى عتبة باب حجرته تقف فتاة جميلة، إنها الفتاة التي رأيتها من خرتة الباب، لكني وقتها لم أتبينها جيدًا، كانت فتاة فارهة الجمال ذات شعر فاحم يتدلى على صدرها فأخفى ثدييها ورقبتها وشيئًا من صدغيها، وباقي وجهها كان بارزًا كبدر في ظلام دامس .

رأيت بياضًا زاهـرًا وعيونًا نجلاء وشفتين ممتلئتين وحاجبين مزججين.جذبني جمالها فنسيت والدي وشخصت ببصري نحوها في صمت، تمنيت أن أظل حياتي هكذا واقفًا أنظر إليها، وهي تنظر إليّ، لكن والدي اجتث حالة النشوى تلك التي اعترتني عندما نظرت إليها، وصرخ في وجهي:

ــ ماذا تريد يا ولد؟ كدت أن تحطم الباب!

انتبهت له فقلت وبصري مازال عليها:

ــ أريد طعامًا،فمازالت على لحم بطني من الصباح، لم أتناول شيئًا يسد فم معدتي حتَّى الآن، ونحن الآن في وقت الغداء، ولم أعد قادرًا على التحمل، معدتي تتقطع .

ــ معدتك تتقطع لأنك لم تفطر؟! إذن ماذا ستفعل في رمضان؟ أعتقد أنك لن تصوم بسعارك هذا، مع أنك مثل الثور تستطيع سحب عربة أفضل من الحمار .

ــ أنا لا أفكر في أي شيء الآن سوى الطعام، أقبِّل يدك أطعمني أنت حبستني ولم أعترض أو أتبرم أو حتّى أشتكي، ولكن لا تحرمني الطعام فأنا لا أقدر على الجوع .

ــ اسكت ولا تثرثر كثيرًا، ستطفح معدتك بالطعام الآن .

والتفت لينصرف فبادرته:

ــ أبي ...

فقال دون أن يلتفت إليّ:

ــ قلت لك ستطفح الآن

ــ من هذه المرأة يا أبي؟

وهنا التفت في صمت، وهو ينظر إليّ ثمَّ قال:

ــ لماذا تسأل؟

ــ لأني أول مرة أراها هنا.

ابتسم في مكر وقال:

ــ إنها زوجتي الجديدة، وستصبح بمثابة أمك، عاملها كما كنت

تعامل أمك، أطعها ولا تعصها، وافعل كل ما تأمرك به، وإذا حدث واشتكت منك سأقطع رقبتك، وسأحبسك ... ليس في حجرتك هذه، وإنما في زريبة المواشي بدون ماء ولا طعام.

ــ لا .. لا .. لن أعصيها، سأطيعها، وسأفعل كل ما تأمرني به

نظر إلي في حذر ثم لكزني ودعَّني ثمَّ أوصد باب الحجرة عليّ وتركني في حال عقيم من الهموم والآلام، حتى صوحني الحزن والبث والتحسر، وعندما أُدخل الطعام فترت شهوتي نحوه.

تذكرت أمي وضحكتها لي، تذكّرتها وهي تحنو علي بيدها قبل النوم، وهي تسحب الغطاء على جسدي وتقبلني في جبهتي تذكّرتها وتذكَّرت ألمها،ومعاناتها في مرضها وحيدة، وأنا عاجز بجوارها لا أدري ماذا أفعل؟ قليل الحيلة .

تذكَّرتها وهي تودعني بنظرات حب وشفقة، تذكَّرتها فبكيت، وهمعت عيناي بالدمع الحار، وأحسست بالضعف والوهن ولكني صفعت نفسي على ضعفها فكيف سأنتقم وأنا ضعيف؟!

فصفنت قوّتي المبعثرة، واشتعلت نيران الانتقام في عيناي ورأيت مصارع أعدائي أمامي، رأيت مصرع أبي يتراءى أمام عيناي باستمرار، كنت أود قبل أن يرتد إليّ طرفي أن أرى نفسي قد كبرت، واشتد عمودي وانتصب، وبلغتُ مبلغ الرجال كنت أنتظر الساعة التّي أدخل فيها الكلية كي أبتعد عن شر أبي وأفكر في جو هادئ في مصيره المشئوم ..

كنت أنظر لأخي الذي دخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية،

نظرات حقد وبغض لتباهيه وافتخاره وتكبره الذي زاد ونما بعد دخوله هذه الكلية، وبلغ غروره منتهاه عندما أدخل والدي في عقله أنه سيصبح سفيرًا، وطمأنه بأن له أصدقاء في القاهرة ذوي مستويات رفيعة، وإن تطلب الأمر أن ينفق ثروته كلها من أجل تحقيق هذا الحلم ..

زرع في قلبه هذا الحلم وأخذ يرويه بكلامه، حتّى ولد في قلب أخي شيطان صغير، أخذ يكبر حتى صار قرينًا قويًا له، جعله مغرورّا وألبسه رداء التكبر الزائف ...

ازداد غضبي وحقدي عليه، وشحنني حماسةً وأملًا كبيرًا، جعلني أجتهد وأتفوق كي أدخل كلية من كليات القمة ـ كما يُقال في هذا الزمن ــ تفوق كليته التّي دخلها وتعلوها أهمية، كنت أتمنى أن أدخل كلية الطب.

ورغم أن جو الدار مع زوجة أبي لا يشجع على التفوق والاجتهاد، حيث بدأت نظراتها تتغير نحوي، نظرات لمحت فيها فوران الغريزة وثوران الشهوة، وبدأت غريزتي هي الأخرى تموج نحوها وتتحرك، ولكني كنت أحجمها خاصة في هذا الوقت، فقد كنت في السنة الأخيرة من الثانوية العامة، والتّي سيتحدد فيها مستقبلي، فكنت أذاكر بشراهة، وقصرت شهوتي في هذه الفترة على المذاكرة ..

ورغم تقصعها أمامي كثيرًا، ورغم ابتساماتها ونظراتها، رغم كل ذلك جمحت شهوتي،وركزت جميع جهودي وصربتها في مذاكرة كتبي الدراسية وفهمها وحفظها إلى أن يأتي اليوم الذي أحرر فيه ما تصرَّى في

صلبي وفرجي من ماء ..

وتحقق حلمي ودخلت كلية الطب جامعة القاهرة، لم تكن فرحة أبي بدخولي كلية الطب تضاهي فرحته بدخول أخي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ولكنه فرح، وهذه أول مرة أرى أبي يفرح لشيء له علاقة أو مساس بي ..

أنا أعلم أن فرحته لم تكن لي، وإنما له، حيث أخذ يتباهى أمام أهل المركز كله بأن أحد ولديه سيصبح سفيرًا والآخر سيصبح طبيبًا، كان يحب المنظرة والشهرة والتعالي والكبر مثل أخي، كان هذا كل ما يشغلهما، أما أنا فقد كان كل ما يشغلني هو كيف أنتقم منهما؟

كنت أجلس في مدرج الكلية أثناء الشرح شارد الفكر، في عالم والآخرون في عالم آخر، كنت أرى في وجه الدكتورة «مها السيد» وجه زوجة أبي كنت كلما أراها تغشاني الرغبة الثائرة وتراودني الغريزة القاتلة التِّي ازدادت، عندما رأيت نادية زوجة أبي تناديني في المنام، فلبيت نداءها وذهبت في أجازة قصيرة إلى القرية ..

بعدما علمت أن أبي في القاهرة يزور أخي عزت، ولم يأتِ لزيارتي، فوجدتها فرصة قليلة ما تعوض، فلملمت نفسي وشددت رحالي إلى بلدتنا الصغيرة .

كانت ترتادني طوال الطريق الرغبة في رد شيء قليل من قسوة أبي عليّ وجفائه إياي .

طرقت الباب وأنا كلي قوة وعزيمة، وعندما فتحت نادية الباب

ابتسمت لها، فاندهشت وقالت:

ــ أبوك ليس هنا .

دخلت وأنا أقول:

ــ أنا أعلم .

نمت دهشتها وأرتجت الباب وخطت نحوي وأنا جالس على كرسي في صالون الفيلا، وقالت:

ــ لو كنتَ جائعًا فالطعام في المطبخ، اذهب وأحضر لنفسك طعامًا .

وجاءت لتمشي، فأمسكت يدها، وقلت وأنا أنظر لعينيها في شهوة:

ــ أنا جائع فعلًا، ولكن ليس جوعًا للطعام، أنا جائع شيئًا آخر، أنت تعرفينه، وأنا أعرفه.

نزعت يدها من يدي، وتأوّدت نحو سلالم الدور العلوي وطفرت تقفز على السلالم وأنا خلفها، وقفت على عتبة باب حجرة النوم تنظر إلى في إغراء، وأنا واقف أترقب، فوجدتها تدخل الحجرة فقفزت ودخلت خلفها، وأنا أرمقها بنظرات الخطيئة، وأخذتها بين ذراعي، فتمنعت وهي راغبة، وتحاول دفعي وهي تقول:

ــ لا يا شريف، لا ... لا ....

كنت أعرف أن « لا » التي تقولها هي « نعم» فزدتُ وحركت يدي على رقبتها ببطء، ومددت شفتاي أحركهما على صدغها دون أن أقبلها، لأني أعلم أن هذه الخطوة ستكون منها، وتحقق ظني وقبلتني نادية قبلة حارة التصقت شفتانا التصاقا محتدما، ثمَّ نزعت شفتيها من شفتاي،

وهوت على السرير في تئن وتكسر، ونامت على ظهرها، وأشارت إلى موضع عفتها، فماج ذكري وتحركت يداي تخلع عني ثيابي، ثم هويت فوقها ...

لم أشعر بالندم بعد تلك الجريمة الشنعاء، وسرت على الطريق الزراعي الموصل إلى البحر الصغير الذي كنت أسبح فيه كثيرًا وأنا صغير، وتراءت نفسي الصغيرة في ذاكرتي وأنا جالس أموج الماء ببعض الحصيات، ثمَّ لم تمضِ إلا لحظات حتَّى وقفت فخلعت ثيابي إلا ما يواري عورتي وقفزت، أغوص في البحر، وأنزل في الماء، وأكتم أنفاسي قليلًا ثمَّ أعلو للسطح فقد كانت لدي مقدرة على كتم نفسي تحت الماء لمدة ثلاث دقائق.

طالت هذه المرة بلغت أربع أو خمس دقائق كأني كنت أنوي الانتحار ثمَّ خرجت برأسي مسرعًا إلى سطح الماء فكدت أن أختنق، وهنا رأيتها .

كانت فتاة عظيمة الجمال تغسل بعض الأواني على الجانب الآخر، كعادة نساء قريتنا اللاتي يغسلن الأواني يوميًا كاشفات من أسفل الركبة بقليل إلى القدم كاشفات عن أرجلهن حتَّى لا يصيبها الماء، كانت هذه الأرجل محل نظر الشباب الهائج يوميًا وكنت واحدًا منهم في بعض الفترات التي مرت في حياتي ...

كانت هذه الفتاة كغير نساء وبنات قريتنا، رأيت رجلين بلون الشمع وثديين أعجرين، غصت حياتي بعدها بأحلام سعيدة، وشيدت في خيالي لنا قصرًا مشيدًا، كنت يوميًا أخرج في نفس الوقت إلى هذا

المكان، لكني لم أرها وكأنها حلم، كنت أرجع كسير القلب، وتكررت زيارتي لهذا المكان ولكن دون عائد ..

وفي هذه المرة عندما جلست أموج الماء رأيت فتاة في عمر العشرين على الجانب الآخر تفعل ما كانت تفعله الأخرى، وقد تكون هي، لم أدقق النظر، لمحتها نظرة عابرة، ثم غادرت المكان .

بعد أن خلع الليل على الكون فروته، وعدت أدراجي أتحسس الطريق بضوء القمر بعد أن قيد الظلام ألحاظ العيون، وعندما رفعت يدي لأطرق الباب سمعت صوت أبي ينطلق من الداخل كالجرس:

ــ تغديت مع ابني عزت لحم مشوي مع كفتة في مطعم السعداوي

استدرت كي أرحل، ولكني فكرت، واستدرت مرة أخرى وطرقت الباب بحماس وثبات.

فتح والدي الباب وحدَّج فيَّ بعينيه، نظرت فيهما فرأيت العتاب واللوم، فأطرقت بصري إلى الأرض، فقال أبي:

ــ ماذا تريد؟

رفعت بصري ونظرت إليه وقلت:

ــ أنا في أجازة وجئت أراك وأطمئن عليك.

ــ أنا بخير.

ــ ما الأمر يا أبي؟ لماذا لا تدعوني للدخول؟

ــ كيف أدخلك وأنت مثل الثور، أنت كالبغل أمامي لم تعد صغيرًا كيف أدخلك داري وفيها زوجتي؟!

ــ ألا تثق فيّ يا أبي؟ كما أنها محرمة عليّ مثل أمي.

ــ أنا لا أثق فيك حتَّى ولو كانت محرمة عليك.

ــ أنت بذلك تجتث جذوري من القرية.

ــ سأبني لك دارًا في القرية عندما تأتي تنزل فيها، وتكون لك خاصة، فلا أراك بعد اليوم هنا،وعندما أنتهي من بناء الدار وإعدادها لك سأرسل لك .

ــ والآن أين سأذهب،وقد ظلل الليل الكون، دعني أقضي الليل هنا وفي الصباح سأرحل .

ـ نم في أي مكان آخر.

ــ ولكني لا أعرف أحدًا هنا .

ــ اذهب إلى عمك «عبد الشكور» أو إلى خالك «متولي»

ــ ولكني لا أحبهما ولا أحب أحدًا من أعمامي أو أخوالي .

ــ أنت حر، هيا انصرف .

وأوصد الباب في وجهي، وتركت العنان لقدمي تقوداني حتى وضعت رحلي تحت شجرة صفصاف في أرض أبي، لم أجد سامرًا في هذا المكان الغرابي إلا الهموم التي عانقتني، والغموم التي توسدتني، ليس بسبب ما حدث بيني وبين زوجة أبي، وإنما لأن نفسي لم ترتضِ بانتقامي من أبي، فلم أشعر بنشوة الثأر كما كنت متوقعًا، وضغطت على أسناني وتقلبت على مراقد الغيظ والشفن والإحنة، وطفقت أفكر في إكمال ثأري حتّى عبث بي الكرى،وأرخى مفاصلي وأمال عنقي حتى

غرقت في لجته ..

.....

رجعت القاهرة مطرودًا من دار أبي وكلي نشوة وانتعاش، بعدما فتكت بحالة اليأس التي غمرتني واحتوتني تحت شجرة الصفصاف، واستحوذت عليّ رغبة شهوانية صرخت بأعلى صوتها، وسمع نداءها بعض أصحابي الذين دعوني إلى سهرة خاصة في شقة أحدهم في المعادي، وكان ضيوف شرف السهرة بعض الفتيات المثيرات ..

ودهشت عندما رأيت ثلاث من الفتيات من زميلاتي في الكلية كنت أحسبهم على خير من أدبهم وحيائهم، الظاهر أن هذا الأدب كان مصطنعًا، بعدما رأيتهم عاريات في أحضان بعض الزملاء في تلك الشقة الضجة بالأصوات الصاخبة بموسيقى البوب .

تجردت من كل مظاهر الحياء، والخجل التي كنت أتكلفها في الكلية أمام الزملاء والزميلات والمدرسين،ورحت أرقص وشربت الخمر لأول مرة حتى ثملت، ولم أعدّ أعرف نفسي ولم أعرف من أمامي ..

كانت فتاة تتجرد من ملابسها، وأنا جالس على السرير، فقد طفرت الخمر برأسي فتمايلت وترنحت ومال ظهري على السرير، وقد تملكني الصداع ولم أشعر بما حدث بعد ذلك وكأني فقدت ذاكرتي ...

حتَّى في الصباح وأنا في شقتي حاولت التّذكُّر ماذا حدث بعدما رأيت الفتاة تخلع ثيابها، ومن هي هذه الفتاة؟

ولكني لم أستطع التذكُّر، فنظرت جواري في المدرج فرأيت فتاة

بجواري تحدج فيَّ، اندهشت، وقلت لنفسي:

ــ قد تكون هي هذه الفتاة !

وظلت تنظر إليّ، وأنا أنظر إليها حتَّى بعدما خرجنا من المدرج أتأرتني بصرها يتبعني، ولم أعيرها أدنى اهتمام حتى ولو كانت هي التي كانت معي في الحجرة، فأنا لا أراها وأمثالها إلا في حجرة النوم ..

لم يكن بصرها فقط هو الذي يتبعني فوجدتها واقفة أمامي في حديقة الكلية عندما كنت أدخن سيجارة .

ودون أن آذن لها جلست بجواري مبتسمة،وأبدت عن إعجابها الشديد بي وتوقعت أن أبادلها نفس الإعجاب، ولكني صرعتها عندما قلت لها ببرود:

ــ يا آنسة أنا لست للحب، وبصراحة أنا لا أرى المرأة تصلح للحب والعاطفة إلا على الفراش، فهذا هو دور المرأة الحقيقي في الحياة أن أفرغ فيها شهوتي، أترضين أن تكوني هكذا وتنامين لي أفعل بك ما أشاء؟

شفنتني في غضب، ونظرت إليّ باحتقار وانتصبت واقفة وقالت:

ــ أنت إنسان قذر ووسخ، ولن تصبح طبيبًا نظيفًا أبدًا .

ضحكت حتّى طخطخت ثمّ قلت:

ــ ومن قال لك أني سأكون طبيبًا نظيفًا؟ أنا سأكون أنجس وأقذر طبيب عرفته البشرية، سأكون وصمة عار في جبهة مهنة الطب.

بصقت على الأرض تقصدني بذلك، وأرفلت في مشيتها، وأنا أضحك وأكهكه ثم قلت:

ــ فتاة غبية .. حمقاء .. ولا تعيش الواقع، ربما تصطدم يومًا ما بصخرة صلداء تفيقها وتنزعها من حمقها .

ونفثت دخان السيجارة في الهواء، فتذكرت أبي وزوجته نادية التي ملكتني من نفسها، وهززت رأسي وقلت:

ــ لقد طردني أبي من داره كالكلب للأبد، ولن أرى نادية بعد ذلك ضحك عليّ بالبيت الوهمي الذي سيشيده لي .

وضحكت ثم أردفت قائلا:

ــ والمضحك أنه هو الذي سيرسل إليّ، أي لغو هذا يا محمد؟

تظنني غبيًا، أنت تكرهني كرهًا أعمى، وأنا كذلك أكرهك كرهًا قاتلًا عن قريب سيقذفك في غيابات الهلاك.

كنت متيقنًا، أنه لن يبني البيت الذي وعدني به، ولن يرسل إليّ وتكيفت على هذا الوضع حتّى فوجئت بعد مضي تسعة أشهر من آخر زيارة لي للبلدة، فوجئت بخطاب أرسله لي على عنوان شقتي غشيتني الدهشة وعانقني الفكر، وجلست سمير الحيرة والقلق والتفكير الطويل طوال الليل، أكلم نفسي:

ــ هل حقا أبي بنى البيت؟ أم ماذا؟

ماذا وراؤك يا محمد يا وحيدي؟

ما الذي تدبره لي؟

جلست في القطار أتقلب على مهاد الفكر والقلق، كنت طوال الطريق أفكر حتّى اقتربت من الدار أقصد فيلا الوحيدي، ورأيت

الزينات معلقة، وصوانا كبيرا أمام الفيلا، فوقفت أنظر والصمت يعلوني، حتّى قطعه ضوضاء سيارة، فالتفت خلفي فرأيت أخي عزت يقود سيارة جديدة، تعجبت من ذلك .

أوقف السيارة وتبختر نحوي، ومد يده يصافحني وهو يصطنع ابتسامة باردة جافة، فمددت يدي وقلت:

ــ ألف مبروك على السيارة يا عزت؟ من أين لك هذه؟

ــ أبي اشتراها لي منذ شهرين تقريبا، وأنت ألف مبروك .

ــ مبروك؟! على ماذا؟ لم يشترِ لي أبي سيارة جديدة.

ـ ألف مبروك على الفيلا الجديدة التِّي بناها لك أبي .

قلت مندهشًا:

ــ أي فيلا؟

ــ هذه الفيلا ...

(وأشـار لي نحو فيلا قريبة من فيلا الوحيدي)، نظرت إليها، واصطنعت ابتسامة مماثلة لابتسامته، وغيرت الحديث قائلًا:

ــ ما الأمر؟ لقد أرسل لي الوالد خطابًا عاجلًا أقلقني، وهذه الزينات والأنوار والتعليقات .. ما سببها؟

ــ ألا تعرف؟

ــ أعرف ماذا؟!

ــ والدك أصبح لديه ابن ثالث.

صعقني ما سمعت، واكتنفني الوجوم ثم قلت:

ــ مِن مَن؟

ــ مِن مَن؟! من زوجته نادية، ألا تعلم أنه متزوج؟

ــ ولكن ... ولكن هو متزوجها منذ ما يقرب من ثماني سنوات ولم ينجب منها، وينجب منها الآن؟!

ــ إذا أراد الله شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، بإذنك سأذهب لأبارك لأبي، إن فرحته اليوم تشحن الدنيا كلها، كان سيطير من الفرحة وهو يكلمني عبر الهاتف يخبرني بقدوم مولوده الثالث آخر العنقود.

وتركني ورمل نحو فيلا الوحيدي، وقد أصابتني الصدمة، وعبثت بي الأفكار حتى غرقت في لجة الوساوس المسمومة،وانطلقت نحو الدار أهوزل في سيري حتى وصلت إلى مجتمع أبي وأصحابه في الصالون .

وهم متفرقون فوق كراسي الصالون الأنيقة، كان يجلس معه أقاربه، وأخوه «عبد الشكور» العمدة، ومأمور المركز وطبيب مستشفى القرية، وبعض الشخصيات ذات المستوى الرفيع التِّي جاءت من خارج المركز تبارك لأبي.

أبديت الفرحة، وانكدرت نحو أبي أحضنه وأبارك له:

ــ ألف مبروك يا أبي .

ــ الله يبارك فيك يا دكتور شريف، وعن قريب ستتزوج أنت وأخوك عزت وتصبحان أبوين، اجلس

ــ سأذهب لأرى أخي الصغير، ما اسمه؟

ــ اسمه نبيل

ــ نبيل اسم جميل سيكون له نصيب من اسمه، بعد إذنك

ــ صافح أصحاب وضيوف أبيك أولا

وصافحتهم، وخرجت من عندهم متجهًا نحو حجرة نادية وابنها نبيل، وكانت تحمله بين ذراعيها وحولها بعض الفتيات والنساء المشغولات بالرقص والغناء والطبل،اللاتي فوجئن بي أمامهن في الحجرة، وعندما وجدنني وسطهن قمن وانصرفن من الحجرة خجلات، وبقيت نادية جالسة على السرير كما هي .

عندما رأتني تغير وجهها، اقتربت منها ومددت يدي نحو الطفل أحمله وعيناي تحدجان في عينيها .

وحملته ونظرت إلى الطفل وقلت:

ــ نبيل فيه شبه كبير مني .

ولم تتكلم فانخفضت برأسي وقلت بصوت خفيض:

ــ من والد نبيل يا أم نبيل؟

خفضت رأسها، فقلت بصوت ارتفع قليلًا:

ــ من والد نبيل يا نادية؟

رفعت رأسها وقالت:

ـ اخفض صوتك

ــ من والد الطفل؟

ــ أنت

هززت رأسي وقلت:

ــ كما توقعت؟

صعق أحمد شريف مما قرأ وانتصب واقفًا ورمي مذكرات والده جانبًا، وانسدر نحو حقيبته السوداء الموضوعة فوق منضدة خشبية في مؤخرة الحجرة، وأخرج منها زجاجة ويسكي، ونزع سدادتها، وأولجها فمه، وشرب ...

ثمَّ أخرجها من فمه ووضعها على المنضدة، وتسنمه الوجوم وقال بصوت مخمور:

ــ عمي سيادة اللواء نبيل محمد الوحيدي أخي؟! وليس عمي؟!

هذا ليس معقولا؟ هذا أغرب من الخيال؟

كيف؟

كيف حدث ذلك؟

وطوال هذا العمر لا أعلم، ولا أحد يعلم مننا ولا من الناس !

كيف فعلت ذلك يا أبي؟

تزني بزوجة أبيك، وتنجب منك طفلًا لا يحمل اسمك، ويحمل اسم أبيك؟

بلغ بك الفجور والفسق إلى هذه الدرجة؟!

وضحك حتّى قهقه، واغرورقت عيناه بالدَّمع، وهو يتخلَّج من السكر حتى انقضَّ على الأرض، وهو مازال يقهقه، ثم سكت وقال:

ــ انتقامك فظيع، وفعلك شنيع يا أبي، كنت عربيدًا نجسًا وسخًا قذرًا، وأنا كنت أسأل نفسي لماذا أنا هكذا؟ من أين لي بهذه الصفات

الشاذة؟!

إنها لك، فأنا مثلك يا أبي، لقد ورثت منك قذارتك وقسوتك وشذوذك، هل هذه آخر الأسرار، وخاتمة المفاجآت، أم أن هناك المزيد؟!

ورجع إلى مذكَّرات والده مرة أخرى، بعدما صحا من السكر، والقلق والخوف يدثرانه من مفاجآت والده وأسراره الآتية

ــ ولكن كيف ذلك؟ ألم يضاجعك؟

ــ ضاجعني ولكن بعد فترة من لقاءنا، وقد انتابتني بعض أعراض الحمل من دوخة وقيئ و....

ــ أنا أيضًا قلت ذلك، لقد تزوجك أبي منذ ثماني سنوات، فلماذا لم يحدث حمل إلا في ذلك الوقت بالذات؟

ــ أرجوك يا شريف

ــ لا تخافي، نبيل أخي، طمئني نفسك، لن يعرف مخلوق على وجه الأرض بهذا السر الخطير.

وخرجت من عندها، ولم أجالسهم وتركتهم فرحين بابن أبي الذي هو ابني في الحقيقة، وجلست في صمت وسكون في الدار التِّي بناها لي أبي، والتي يسميها فيلا، وكتب عليها فيلا الدكتور شريف محمد الوحيدي، وهي تشبه الفيلا لكن حجمها صغير، لكني لا أحب هذه التسمية أحب اسم الدار أكثر .....

تناقضت مشارعي وأفكاري ووساوسي، فلم تكن ندما ولا حزنا ولا تحسرا ولا شماتة ولا عطفا ولا فرحا ولا ألما ..

ولم تنزل من عيناي دمعة، ولا شعرت بالشفقة من أجل والدي، وإنما ضحكت وغرقت في لجة الضحك، دون أن أعرف سببه وأخذت أدور في الدار فاردًا ذراعيّ، أتخلج كالمجنون يتمايل يمنة ويسرة، ثمَّ صمت فجأة، ورأيت نفسي في مرآة مغروزة في جدار الحمام فوق الحوض، حدجت فيها ثم قلتُ بسرور:

ــ هذا هو أغلظ ثأر وأعتى عقاب لأبي، بسبب ما فعله بي، هذا ما جنت يداه أن يعيش مخدوعًا موهومًا معتقدًا أن ابنه نبيل من صلبه ومن مائه، إنَّه ابني أنا حتّى ولو اعتقد غير ذلك؟

كيف صدق أنه ابنه؟ ألم يفكر في الأمر ولو قليلًا؟ إنه متزوج منذ ثماني سنوات، ولم يحصل إنجاب منها، ثمَّ فجأة يصبح له ابن بعدما عاشرتها معاشرة الأزواج أكثر من ساعة ..

هذا الولد ولدي، لقد أكدت ذلك، قالت إنَّها شكت في أنها حامل بعد شهر من مضاجعتي لها، وقبل أن يضاجعها أبي المضاجعة التي أنزل فيها ماءه واعتقد أنها كانت البذرة لولده ...

يا لك من ساذج مخدوع موهوم يا أبا نبيل !! .....

سوف أشدد عليك العقاب، وأتركك على سذاجتك وغبائك وتوهمك بأنه ولدك حتَّى تموت، أو ربما أخبرك بالأمر، وأنت في سياق الموت حتَّى يزداد ألمك وحسرتك ..

أو ربما لا أقول لك ولا أفضحك، فمن المحتمل أن أكظم السر وأكتفي بمعرفتي داخل نفسي بأنه ولدي، وأمام الناس سأناديه أخي

وسأعامله معاملة الأخ ...

وربما غير ذلك ..

والآن أستطيع أن أقول لنفسي أن تهدأ قليلًا، في الوقت الحاضر فقد انتقمت من أبي شر انتقام، لم يبقِ إلا أخي، وسوف أنتقم منه بنفس الأسلوب الذي اتبعته في الانتقام من محمد الوحيدي أبي

سأصبر حتَّى تتزوج يا عزت، وأشاركك في زوجتك ...

وظننت أني سأصبر كثيرًا، ولكن ذلك لم يحدث، فقد فوجئت بزيارة أبي لي في الدار أو في الفيلا كما يسميها التِّي بناها لي بعد ثلاثة أيّام من حضوري القرية، وفي اليوم الذي كنت سأسافر فيه تقريبًا يوم الخميس بعد الظهر، جاءني عارضًا عليّ عرضًا مغريًا أن يزوجني وعزت في ليلة واحدة، وقد اختار لنا زوجتين من بنات اثنين من كبار أصحابه ذوي الثراء المفاجئ، حيث كثرت الأقاويل حول مصدر ثروتيهما فمن قائل من المخدرات، ومن قائل من السلاح، ومن قائل من بيع الآثار وغير ذلك من الأقاويل .

أحدهما والذي اختار لي أبي ابنته وهو الحاج «كامل شاهين» مقاول مشهور يرسو عليه كثير من مناقصات الحكومة في المشاريع المعمارية التي تقيمها الحكومة في كثير من المحافظات

والآخر أقصد الذي اختار أبي ابنته لأخي عزت وهو «فريد الشاطر» الذي كان وزيرًا سابقًا، والآن أصبح رجل أعمال مشهور، ولديه مستشفى استثماري كبير في مصر الجديدة ..

يعني باختصار هما زوجتان لا ترفضان، ولكني رفضت وتحججت بصغر سني، فقال لي:

ــ صغر سنك ليس مشكلة أو عقبة أمام الزواج، فقد تزوجت «آمال» التي قبل أمك وعمري ستة عشر عامًا.

قلت فارًا من كلامه:

ــ بصراحة يا أبي أنا لا أفكر في الزواج الآن، فكل ما يشغلني الآن هو دراستي والاجتهاد فيها كي أصبح معيدًا في الكلية وأحصل على الدكتوراه، ثم بعد ذلك أفكر في الزواج .

ــ ولكنك بذلك ستنتظر كثيرًا يا شريف (أول مرة أسمع منه كلمة شريف بهذه الرقة والوداعة). وستضيع منك ألذ سنوات حياتك دون أن تتمتع بشيء من مباهج الحياة.

ــ اعذرني يا أبي، أنا لا آبه بالزواج الآن، زوج أخي عزت الآن، واتركني لوقت لاحق، ومن الممكن أن أغار من أخي وأتزوج بعده بقليل.

ــ أنت حر يا شريف.

وتركني وانصرف، كل هذا غير مهم، المهم أن معاملة أبي لي بدأت تتغير من ناحيتي، بعدما رأى طفله الصغير في هذه السن الكبيرة .

ولكني لم أتأثر بذلك، ولم ترتجف شعرة حب في قلبي من أجله، فهذا لا يهمني، فكل ما يهمني الآن، ويثير الحصباء في فؤادي ويعبث بفكري هو إتمام انتقامي من بقية أعدائي، وهو أخي وسيكون انتقامي منه في

زوجته الجميلة ..

كانت حقًا فتاة جميلة، وهي جالسة بجواره في «الكوشة» في أفخم فنادق القاهرة، وهو فندق مشهور يقيم فيه غالب الوزراء ورجال السياسة والاقتصاد مناسباتهم السعيدة ..

كانت ابنة هذا الوزير السابق آية في الجمال، ما حيرني هو كيف عرف أبي هذا الرجل «فريد الشاطر»، ولكني لم أشغل نفسي بالتفكير في هذا كثيرًا لأني أعلم مقدرة أبي في تكوين العلاقات والصداقات ...

وكل ما شغلت نفسي به هو التركيز على جسم «فيروز الشاطر» زوجة أخي .

ماج فرجي وتحركت غريزتي نحوها وتراءى أمام عيني في ذاكرتي لقائي معها كعشيقين ملتهبين ..

وعندما صافحتها أمام عيني أخي مهنئًا لها على الزواج السعيد شعرت بلدونة غريبة تسري في جسدي من ليونة يدها ورطوبتها، ودخلت بعيناي داخل عينيها النجلاوتين الخضراوين، وعلى فمي نصف ابتسامة تسنمتها الشهوة، وقد أحست بذلك فغضت طرفها ونزعت يدها من يدي فاكتملت الابتسامة وتركت الحفل وخرجت إلى الشارع أدرم في غبش الليل، حتَّى وجدت نفسي أمام ملهى «الربيع» في شارع الهرم، سمعت عن هذا الملهى كثيرًا الذي ينسيك الهموم والأفكار، بل حتى قد ينسيك اسمك ..

كان الملهى يضج بالألوان والأصوات الصاخبة، دخلت وجلست

ألذّذ ناظراي بجسم الراقصة «أسمهان» التي تتلوى كالأفعى، وهي شبه عارية، نصف الصدر تقريبًا كان يترجرج من الحركة مع أفخاذ ممتلئة يهتزّ لحمها مع حركاتها المائعة ...

خرجت وأنا ثمل من الخمر، مثقل الرأس مصدعه، ولم أدرِ بنفسي إلا في الصباح، عندما استيقظت وجدت نفسي نائمًا على الأرض في صالة الشقة.

وأفقت من سكري على دبيب عقارب الحسد في صدري من ناحية عزت أخي الوحيد، بسبب زوجته الجميلة

كان هذا الحسد يزداد يومًا بعد يوم، وزاده وفقعه تعيينه ملحقًا سياسيًا في وزارة الخارجية المصرية، وبدأ يسعى نحو السفارة سعيًا حثيثًا، وبعدما أسكرتني خمرة الكبر ، واستهوتني غرة التيه نويت ورأيت أن أخرج سهام ثأري من الدهليز الأقصى، وأن ألدغه بسموم أفاعيّ القاتلة بعد كمونها الطويل ترصده، وترقد له

وبدأت أفاعيّ تتلوى على الأرض زاحفة نحو شقة أخي أثناء ميقات عمله، فتحت لي «فيروز» مندهشة، فانثنيت شفتاي بابتسامة بذيئة، وانّسل مني لسان الخبث قائلًا:

ــ كيف حالك يا فيروز؟

فقالت بقلق:

ــ الحمد لله، عزت ليس هنا .

ــ أنا أعلم أنه ليس هنا .

فقالت مندهشة:

ــ ماذا؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟

ــ أنا لا أريد عزت .

ــ مَن تريد؟

صمت وتكلمت عيناي يطمر منهما الخبث والدناءة والقذارة ولكنها أغضت طرفها، كأن ما أريد شعرت به ودبّ في جسمها، وهيأت نفسي على أنها ستدعوني للدخول كي نحظى بلحظات أنس ولذة، لكني ذهلت وطاش حدسي عندما صدتني قائلة:

ــ أرجوك يا دكتور شريف لا تأتِ إلى هنا مرة أخرى إلا عندما يكون أخوك موجودًا.

ــ لماذا تغضين الطرف عني يا فيروز؟ لماذا لا تريديني أن أنظر إلى صفاء عينيك؟

ــ أرجوك يا ...

قاطعتها قائلًا:

ــ أرجوكِ أنتِ، دعيني أتكلم ثمَّ افعلي ما تشائين، حياتي تغيرت عندما رأيتك أول مرة، عندما رأيت وجهكِ الشامس وشعرك الدامس، وغصن البان الذي يهتز تحت ثيابك، وثغرك الجامع الضريب، وعنقك الذي يبدو كأنه إبريق الفضة، وصدرك الرمان ..

فقالت وهي تنظر إلي بعينين مفتوحتين من الدهشة:

ــ ما هذا الكلام يا دكتور شريف؟

صمتّ وتركت عيناي تتكلمان ... دخلت عيناي مآقي عينيها فخفضت بصرها إلى الأرض، ورأيت تأثير كلامي على وجهها كالسحر، فقد احمرّ كأنه التفاح، فارتفعت يداي تتحسسان يديها من أعلى لأسفل، فأحست بقشعريرة، فجذبت يديها بسرعة ودخلت وأغلقت الباب في وجهي ..

حركت رأسي من أعلى لأسفل، ورفعت يدي كي أطرق الباب، ولكن يداي ترددتا فرحلت وتركتها هذه المرة للمرة القادمة التي كانت عبر الهاتف في نفس الميقات السابق، وأخذت أفاعيّ بملمسها الناعم تدب في مسامعها:

ــ أرجوكِ، لا تقفلي في وجهي هذه المرة، واسمعيني، فأنا أريد أن أبدي إعجابي بكِ لأنكِ أجمل امرأة في هذا الكون، فأنتِ روضة الحسن، فمطلع الشمس من وجهكِ، ومنبت الدُّر من فمكِ، وملقط الورد من خدكِ، ومنبع السحر من طرفكِ، ومبادي الليل في شعركِ، ومغرس الغصن من قدك، ومهيل الرمل في ردفكِ، قد احترق سواد قلبي من حبكِ، فإلى متى هذا البعد، فمتى نلـ .....

ولم أكمل كلامي فقد وضعت السماعة في اللحظة الحاسمة التي عندها يكرم المرء أو يهان، ومع أني تضايقت وغضبت إلا أني انتشيت من هذا الانتصار الضعيف، فسماعها لكلامي رغم صمتها هو البداية للطريق إلي بداية انجذابها نحوي، فربما ــ وهذا ظن أكيد ـ أن تتصورني في عقلها وتفكر فيّ بإعجاب، وسوف يزيننني الشيطان في نفسها ويوسوس

لها، وعندها ستأتي إليّ راغبة كما حدث مع نادية زوجة أبي ....

فمجرد سماعها لي قبول وليس رفضًا، والقبول هو أساس أي علاقة بين اثنين ولو كانت محرمة ...

وضعت السماعة أنا الآخر، ودخلت غرفة نومي وهويت على السرير متصورًا إياها في حضني تلثم فمي بفيها الرطب وشعرها ينسدل فوق جسدي ينعشه ويزيده حيوية ونشاطا.

أحسست بمتعة التصور مع أنه لم يأت بخير، فقد اغتسلت في الصباح مطهرًا جسدي ونفسي من قذارة تصوريَ.

ورأيت أن أكلمها كي أنهي هذا الأمر بسرعة، فقد مللت رغم قصر المدة، ونويت هذه المرة أن أقطع عرق وأسيح دمه، وكلمتها:

ــ لم أعد أتحمل يا فيروز، فشوقي إليكِ استخف نفسي واستفزها وحرَّك جوانحي وهزَّها، شوق قد استنفد جلدي، فقلبي على جمر يتقلب حالي بدونك حال عود ذوى بعد ارتوائه، قد صرت حليف وحشة وإن كنت ثاويا في وطن، وقرين كربة وإن كنت بين جيرة وسكن، من شاهدني شهدت له حيرتي دون محاورتي بما ألاقيه، وأخبرته عبرتي دون عبارتي عما أعانيه

النار في قلبي تتقد، وتمكن مني بَرْحُ شوق مضطرم .... ألا تناديني وتهوني عليّ وحشتي وكربتي وتعيدي إليّ قوتي وعزيمتي، فقد انثنيت بجسم ناحل، وبت من صبري على مراحل، ألا .....

ولم أكمل سحري وسمعتها تقول بصوت خافت:

ــ تعال

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أطرق باب الشقة، وعندما فتحت لي فاجأتها بالدخول مسرعًا، وأغلقت الباب وابتسمت وقلت:

ــ كنت أعلم أنك ستبادليني نفس الإحساس والرغبة، يا ليت قلبي يتراءى لكِ فتقرأين فيه سطور عشقي لكِ، ألا تعلمي أني ....

قاطعتني قائلة:

ــ سيضيع الوقت في الكلام، ألا تريد؟

زادت ابتسامتي وهـززت رأسي ودخلت خلفها حجرة النوم وحدث بيننا ما حدث، ودخلت شقتي، وكلي نشوة ونشاط وحيوية بإتمامي ثأري وانتقامي .

وقلت لنفسي:

ــ الآن أنهيت انتقامي، وعما قريب سيولد أخ جديد لنبيل وسينسب لأخي، فأنا أحس إحساسًا قويًا أنه سيكون من نطفتي أنا وليس من نطفته، فقد أفرغت فيها شحنتين على عدد مرات الجماع الذي استمر لأكثر من ساعة، وسيصبح لي ولدان دون أن أتزوج ..

أي شيء يساوي أن يعيش أبي وأخي مع زوجتين خائنتين دون علمهما؟!

أي شيء يساوي أن يعتقدا أن ولديهما من صلبهما وهما ليسا كذلك؟!

لا شيء يساوي ذلك ..

وهذا هو عقابي وعذابي لهما، أغلظ عقاب وأشد عذاب وأطغى ظلم

وأعتى ثأر ..

والآن بعد أن ارتاحت نفسي شيئًا ما بهذا الفعل الشنيع لم يعد أمامي سوى الاجتهاد والتفوق في دراستي لأصبح معيدًا،ثمَّ دكتورًا في الجامعة، كي أفوق أخي الذي سيصبح سفيرًا، لابد أن يحدث ذلك وإلا سيكون أخي هو الذي انتصر عليّ، وليس أنا وأعود مرة أخرى للتآكل من داخلي، لا ... لا .... لابد أن أنتصر عليه للنهاية، وإلا سأنتحر وأقضي على حياتي فإما أن أنتصر عليه وإلا نهايتي.

صعق أحمد مرة أخرى من هول ما قرأ، فقام من على مذكَّرات والده، واتجه نحو الخمر يأخذ كأسًا آخر تجرعه في عجالة، ثم حدث نفسه بصوت مسموع قائلًا:

ــ لا ... هذا ليس معقولًا، سعادة السفير عادل عزت سفير جمهورية مصر العربية في دولة هي من الدول العظمى في العالم، سعادة السفير عادل يكون أخي مثل سيادة اللواء نبيل محمد الوحيدي؟!!!

لا ... لا ..... هذا ليس صحيحًا، فسعادة السفير عادل ابن عمي وسيظل ابن عمي وليس أخي، كما أنَّ أبي في مذكراته لم يجزم بذلك، هو شعر، وشعوره هذا ظن قابل للطيشان، والانحراف.

من يصدق هذا؟!

كما أن عمي السفير عزت كان عريسًا جديدًا وشابًا فتيًا والتقى بزوجته كثيرًا قبل التقاء أبي بها إن كان هذا صحيحًا، ولم يهجرها ولم يكن عِنِّينا بدليل أنه تزوج امرأة أخرى ..

ما هذا يا أبي؟!

كيف فعلت هذه الفعلة الشنعاء، كالتِّي قبلها؟!

لقد كنت شيطانًا مريدًا وساحرًا فاجرًا. استطعت أن تلوي عنق وقلب فتاة جميلة في بداية زواجها من زوج محترم ووسيم، فقد كان عمي فيه شبه كبير من جدي محمد الوحيدي مع اختلاف بسيط في بعض التفاصيل، لكن بالجملة فهو يشبه والده كثيرًا،حيث كان شابًا طويلًا طوله يربو على «180 سم» يملك شعرًا بنيًا طويلًا منسرحًا دائمًا للخلف، يعلو وجهًا أبيضَ مشرقًا يبعث على البهجة والانشراح، عندما تراه، وعينان بنيتان بلون الشعر، وجبهة عريضة عرض أربعة أصابع من يده المتوسطة الطول وشارب خفيف كخط بقلم ألوان أسود فوق صفحة بيضاء في كراسة رسم طفل صغير، هذا الشارب منحني انحناءة خفيفة من الجانبين على فم صغير، وذقن صغيرة تتوسطها نونة زادته جمالا ووسامة، هذه الوسامة إذا اجتمعت مع هذا الجسم الطويل الرياضي مع أناقة، وشياكة في اللبس والرائحة الزهية التي تنبعث منه دائما، مع ابتسامة صافية تظهر أسنان ناصعة البياض كأنها الثلج، فقد كان يهتم كثيرًا بنظافته ونظافة أسنانه وكل شعرة في جسده .

كل هذه الأشياء إذا اجتمعت مع بعضها في شخص؛ تخرج لنا شخصًا جذابًا معشوقًا من فتيات جيله وقبل جيله وبعد جيله.

فكيف تترك «فيروز هانم» كل هذه الامتيازات والأوصاف في زوجها وتتجه لأبي الذي كان يختلف عن أخيه وأبيه في كثير من الصفات التي

ترجع لأمه، فقد كان بلون الحنطة يميل إلى البياض قليلًا، لم يكن طويلًا مثل أخيه لكنه أيضًا لم يكن قصيرًا، فقد كان طوله يربو قليلا على«170 سم» تقريبا يعني الفرق بينه وبين أخيه «10 سم» وبجسم يميل إلى النحافة يعلوه وجه نحيف بشعر أسود اللون ناعم منسرح على الجانب الأيمن مرة وغير منسرح مرات، وبجبهة مقدار ثلاثة أصابع عرضًا، أسفل منها عينان سوداوان، يحيط بها كالقوس هالات شديدة السواد من آثار شرب الخمور والمخدرات، وأنف طويل محدب قليلًا من أعلى، وشارب يعاجل في حلقه باستمرار .

ولا أريد أن أطيل في وصفه لكرهي له، ولكن هذا مجمل جسمه وملامحه، فكيف بشخص بهذه الأوصاف تتجاوب معه «فيروز هانم»، وتترك رجلا بمواصفات عزت التي يتمناها أي شاب وتستهوي أي فتاة؟

هناك سر ..

كيف استجابت لك؟ كيف جذبتها نحوك يا أبي؟ كيف؟ !

لقد قلبت جميع حياتي رأسا على عقب، وجعلت عاليها سافلها، بأي وجه بعد اليوم سأقابل سعادة السفير عادل عزت، وسيادة اللواء نبيل الوحيدي؟!

ماذا سأقول لهما؟!

أأقول لهما الحقيقة أم أكتم وأواري في قلبي؟!

الآن لا أعرف الجواب، عليّ أولًا أن أنهي قراءة تلك المذكرات

الملعونة القذرة ....

«ولملمت جهودي وكثفتها في الاستذكار خاصة، وأنا في آخر سنة لي في كلية الطب، وعزمت على الزهد عن الشهوة والنساء في هذه الفترة ..

اعتقدت أني قادر على ذلك وكيَّفت حياتي على ذلك في هذه الفترة، ولكن حياتي تغيرت، ووهنت عزيمتي، وطاش اعتقادي عندما رأيتها في مكتبة الكلية ...

كانت فتاة غزال رائعة الجمال والأناقة، هي من وجهها في صباح شامس ومن شعرها المتدلي على رقبتها في مساء دامس، كأنها فلقة قمر، أعلاها كالغصن ميَّال، وأسفلها كالدِّعص منهال كانت حسنة القد، لينة القصب، لطيفة الخصر مع امتداد القامة طويلة العنق في اعتدال، وحسن، رقيقة الجلد ناعمة البشرة، طيبة الروح، طيبة الفم عند محاورتها، طيبة ريح الأنف الصغير، طيبة الغصن، يجري ماء النعيم في وجهها.

طرفها فاتر، نظرها ساحر، فعيناها حشو أجفانها السحر، تخال الشمس برقعت غرتها، والليل ناسب أصداغها وطرتها ..

جرى ماء الشباب في عودها فتمايلت كالغصن، فتمايل قلبي لها وانجذب نحوها انجذاب المسامير للمغناطيس ..

اقتربت منها وهي غارقة في القراءة وحولها بعض الكتب مبعثرة يمينًا وشمالًا.

جلست مقابلًا لها وهي مازالت تقرأ، لم تحس بي ولم تنتبه لي، وأسجدت ببصري نحوها في صمت وهدوء، لم أشأ أن أزعجها.

حتَّى رفعت بصرها ووجدتني أحدج فيها، فتعجبت ومالت برأسها يمينًا،ثمَّ هزَّت رأسها تعجبًا، وعادت للقراءة، ولكني كنت غارقا في لجة بهاء وجهها، فرفعت بصرها مرة أخرى فوجدتني ما زلت عالقًا بصري بوجهها، فقالت متعجبة:

ــ ماذا بك يا أستاذ؟ أتريد شيئًا؟

وتلجلجت في الكلام:

ــ لا، لا أريد، نعم ... أريد

ــ تريد مني أنا؟

ــ نعم منكِ أنتِ.

ــ لكنك لا تعرفني.

ــ أنا شريف محمد الوحيدي في السنة السادسة، وسأتخصص إن شاء الله في الطب النفسي الأمراض النفسية والعصبية والعقلية، وإن شاء الله سوف أصبح معيدًا في الكلية، وأنتِ؟

ــ أنا لم أسألك عن نفسك كي تقص كل هذا الأمر عليّ.

ــ ولكني سألتكِ.

ــ ولكنك لا تعرفني.

ــ لقد قمت الآن بتعريف نفسي لك، فماذا عنك أنت؟

ــ لماذا تريد أن تعرفني؟ !

ــ لأني هنا في الكلية منذ ست سنوات تقريبا، ورأيت خلالها بنات وفتيات كثيرات، لكن لم تشدَّني أي واحدة منهن، ولكن عندما وقع

بصري عليك لأول وهلة، رأيت نفسي مشدودًا إليك دون أن أشعر، وهذا كما يقال أولى درجات الحب.

ــ أنت جريئ جدًا.

ــ وأنت جميلة جدًا، ولم أرَ جمالك على أي بنت قبل ذلك.

وخفرت وأخفضت بصرها، وهي تبتسم فابتسم قلبي وقلت:

ــ ألن تعرفيني بك؟

رفعت بصرها وهي تحاول أن توراي ابتسامتها .. ثم قالت:

ــ أنا «إخلاص الطاهر» في الفرقة الأولى من كلية الطب، ولا أعرف حتَّى هذه اللحظة في ماذا سأتخصص؟

ــ أنتِ يجب أن تتخصصي في طب القلوب، لتداوي قلبي الذي جرح بلحاظك.

وحاولت للمرة الثانية أن تخفي ابتسامتها، ولكنها ظهرت وارتفعت وقالت:

ــ إذا حدث هذا فسيكون بعد مرور سنوات عديدة حينها سيكون قلبك نزف كل دمه.

ــ هذا إن لم نكن معًا .

ــ ماذا تقصد؟!

ــ ربما أتزوجك.

ــ تتزوجني؟!

ــ ولم لا؟

ــ ولكن معرفتك بي لم تتجاوز بضع دقائق .

ــ ربما لو شربنا معًا كوبين من الشاي أو من القهوة أو من أي مشروب تحبينه خارج الكلية سنعرف الكثير عن بعضنا.

ترددت بعض الشيء، ولكنها أبدت موافقتها بابتسامة شفافة تزين شفتيها، وخرجنا في المقهى القابع أمام الكلية وشربنا كوبين من الشاي، وتكلمنا كثيرًا، وعرفنا الكثير عن بعضنا البعض، هي عرفت عني الظاهر للناس جميعًا، ولم تعرف الباطن، ربما لو عرفته لأحرقتني ..

أما أنا فعرفت عنها أشياء كثيرة، فهي ابنة المستشار «الطاهر عماد الدين» نائب رئيس محكمة استئناف القاهرة، وتحب الورد البلدي خاصة الأحمر منه، وهوايتها المفضلة هي القراءة في الأدب خاصة الأعمال الروائية والمسرحيات خاصة الغربية منها، وكانت تريد أن تدخل كلية الآداب رغم مجموعها المرتفع في الثانوية، ولكن رغبة والدها حالت دون ذلك، فانثنت لرغبة والدها ودخلت كلية الطب كما يدخلها بعض أولاد الأثرياء وأصحاب الكراسي والمناصب ليس لأهمية الطب في حياة البشر وإنما كمركز اجتماعي ووجاهة مجتمعية ...

دخلت كلية الطب وهي لا تهوى المواد العلمية كالفيزياء والكيمياء والأحياء.

كانت تعشق القصص والحكايات كعشقي لشعر امرئ القيس، وعمر بن أبي ربيعة، والأحوص، وبشار بن برد، وأبي نواس وغيرهم من الماجنين العابثين وكما يقال «شبيه الشيء منجذب إليه» أو بعبارة أخرى

«الطيور على أشكالها تقع» كما هو المثل الدارج، فانجذبت لإخلاص كما انجذبت لشعر الماجنين العابثين ..

مع أنها لم تكن مثلي فخفرها وخجلها يعلنان عن شخصية محترمة، ولكني أقصد انجذابنا الأدبي لبعضنا البعض، رغم تناقضنا الخلقي، وهذا من وجهة نظري، فربما هي مثلي ولكنها لا تظهر ذلك ... الله أعلم .

انجذبت إليها انجذابًا كليًا وجزئيًا إجمالًا وتفصيلًا، وأهملت دراستي ورميتها جانبًا رغم شدة اهتمامي بمستقبلي، ولكن فتنة «إخلاص» وثورتها الكامنة داخل ضلوعها، وإحساسها العميق ووجهها الجديد على ناظري، جعلني خادمها المشيح، ولم أعد أطيق أن أفارقها لحظة.. التقينا كثيرًا، وتكلمنا كثيرًا، وامتزجت أرواحنا وبتنا شيئًا واحدًا ...

أحست بابتعادي عن هدفي فدفعتني إليه برفق، وطالبتني بتحقيقه كي أكون جديرًا بها، فكانت سببًا في رجوعي مرة أخرى للمذاكرة والاجتهاد، كي أحظى بهدفي وأنال مرادي من كليهما المستقبل وإخلاص..

كنت لا أنام إلا سويعات قليلة، حتَّى اعتقدت أني سأكون أول دفعتي، ولكني صعقت وصرعت عندما ظهرت النتيجة وعرفتها ووجدت نفسي متأخرًا عن كثير ممن سبقوني رغم عنائي وتعبي هذا العام في المذاكَرة حتَّى في الأعوام السابقة كنت متفوقًا.

وقد اجتهدت هذا العام أكثر من أي عام، لأنه هو درَّة سنوات

الدراسة في الكلية، وعليه يتوقف مستقبل الفرد.

اجتهدت وتعبت ولكني لم أظفر بالنتيجة التِّي كُنت أتوقعها، ورأيت الدنيا بلون الغبش القاتم، وازداد يأسي عندما علمت أنهم لن يأخذوا سوى عدد قليل من المعيدين ولن يكون ترتيبي معدًا للاختيار، فوصل يأسي إلى نهايته، وطما الاكتئاب في جسمي حتَّى أوشكت على الانتحار.

إلا أن وقوف إخلاص بجواري خفف عني وطأة ما كنت أعانيه من اليأس والاكتئاب، فقد عاضدتني أشدَّ المعاضدة، وساندتني وأخرجتني من حالة القتوم والكلوح واليأس التي كنت أرقل فيها بأقصى سرعتي .

كان كلامها لي بأن كل شيء مقدَّر، وأن هذا ليس آخر الدنيا،وأن الطريق مازال متسعًا أمامي سواء في مصر أو خارج مصر لإكمال دراستي والحصول على الدكتوراه كما كنت أتمنى، وأني لابد وأن أنتصر على يأسي وأري الكون كله، كم أنا عظيم وقوي وأستحق كل تقدير .

كان كلامها وإحساسها وقربها مني من أعظم الأسباب في اجتياز محنتي وأصبحت لا أقدر على الابتعاد عنها يومًا واحدًا، فقد كانت الشمس والهواء والماء والغذاء لي، وأخبرتها بذلك واستأذنتها في التقدم لخطبتها، وكانت موافقتها ابتسامة تظلل شفتيها..

وطلبت إلى والدي أن يأتي معي لخطبتها، ورغم مرض أبي وتعبه الذي ازداد عليه في الأيام الأخيرة إلا أنه أتى معي، وأنا غير فاهم ما سبب تغير والدي من ناحيتي، وما سبب هذا الحنان والعطف والرقة تجاهي أهو بسبب السرطان الذي يأكل فيه أم بسبب ابنه الذي جاءه

متأخرًا؟ مع اعتبار أنه ليس ابنه لكنه لا يعرف ذلك فهل أخبره بذلك أثناء احتضاره أم أواري الأمر في صدري؟

أشفقت عليه من شدة اعتلاله ومن قربه من القبر، وأنا الذي أحمل في صدري تجاهه حقد وقسوة لو أطلقتهما لأكلا العالم حتَّى إني نويت إذا مات أن أخرج جسده من قبره بعد وفاته وأبيعه وعندي من يشتريه، وهو من تجار البشر ونخاسي الأعضاء، شخص تعرفت عليه منذ عدة سنوات أهداني جثة أتدرب عليها مقابل أن أقدم له زميلتي في الجامعة «علياء سمير» التي طلب منها وجها لوجه أن يضاجعها ويقضي معها ليلة في الشاليه الذي يمتلكه في الإسكندرية، وقد كان، فقدمتها له وهي لا تعلم بعدما قدَّمت لها مخدرًا في كوب عصير دون أن تشعر.

اغتصبها هذا الكائن الذي أسقطته من نظري بعدما كنت أكن له بعض الاحترام، فبحثت وفتشت وراءه وعرفت فظائع وصواعق عنه.

وبالرغم من أنه من حماة قلعة الطب ومن أباطرة المهنة إلا أنه تجرد من كل مشاعر الإنسانية والرحمة هو ومن معه، فهم مجموعة من حلقة في سلسلة مافيا تجارة الأعضاء، وبيع أشلاء البشر وآكلي لحوم بني آدم، إنه الدكتور والجراح المشهور «ماهر أبو زيد». لا أحد في مصر لا يعرف هذا الشخص المعروف بحبه للخير وبأعماله الخيرية، وبالعمليات الجراحية الكثيرة التي يعملها دون أجر لمن لا يستطيع أن يدفع، ولكن كل هذا في الظاهر، أما الباطن فهو أسوأ مني بمراحل شيطان في ثياب دكتور ...

تمنيت أن أغتصبه كما اغتصب «علياء» ولكني استقذرته فكيف

أغتصب هذا القذر المتحلل؟ّ! لن تنتصب شهوتي عليه رغم أنها انتصبت على كثير من الذكران ..

فقرفت منه وأرجأت انتقامي منه إلى حين، عندما تحين الفرصة كي أنتقم لشرف زميلتي «علياء» وحياتها، فقد انتحرت بعدما أفاقت من آثار التخدير، بعدما افترسها الوحش، وهتك عرضها، وفض بكارتها انتحرت، وقد تركت علامات استفهام كثيرة وراء انتحارها، علامات لا يعرف الجواب عنها إلا أنا وذلك الخنزير...

الذنب الوحيد الذي ارتكبته في حياتي، وندمت عليه هو تقديمي زميلتي «علياء» وليمة لهذا الخنزير، وكانت أول مرة في حياتي أصبح قوادًا، ربما كانت «إخلاص» تشبه في بعض الملامح «علياء سمير» وهذا هو ما جذبني إليها، لأكفر عن خطيئتي وذنبي، ربما .....

لكن كيف خطر في بالي بيع أبي لهذا الخنزير وأنا أكرهه مثل أبي أو أكثر؟!

كانت خاطرة في عقلي روادتني كثيرًا أن أبيع جسد أبي له أو لغيره، ولكني لا أعرف سوى هذا الدميم، لكن عندما أتى أبي معي للتقدم لخطبة «إخلاص» رغم مرضه الشديد ألغيت فكرة بيع جسده من رأسي ورميتها في سلة المهملات من ذاكرتي.

خطبتها وعشنا أوقاتا جميلة في فترة الخطوبة من خروجات ورحلات حتَّى تعلقنا ببعض كتعلق الروح بالجسد، فقررنا سويا أن ننهي هذه الخطوبة فورًا ونعلنها زواجًا .

فتزوجنا في لمح البصر، ولمنا شمل الأسرتين «الوحيدي والطاهر» في الفندق الذي عمل فيه قبل ذلك فرح أخي ..

كانت الراقصة تتمايل على أنغام الموسيقى ورغم تعريها في بعض أنحاء جسمها إلا أني لم أشعر بها أصلا، فقد كان بجواري في الكوشة أجمل فتاة رأيتها، وبعد قليل ستكون تحتي وأسفل مني ..

خرجنا من الفندق متجهين إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل في هذا الجو الممتع، مرت أيام كثيرة من هذا الشهر كالبرق، تمنيت ألا ينتهي هذا الشهر، تمنيت أن يدوم سنين طويلة لحلاوة العسل الذي فيه خصوصًا عندما يكون معك زوجة جميلة ذات أنوثة طاغية محترفة في فنون إمتاع الزوج، ولكن لكل شيء نهاية، ورغم أن الشهر لم ينته بعد إلا أن وفاة أبي أعادتنا إلى بلدتي مضطربين مبعثرين ..

لم أكن حزينًا، ولم أشعر بأي ومحة حزن أو ألم من أجله، ولم تنزل من عيناي دمعة عليه حتَّى عندما دخلت عليه وهو يُغسل ورأيته ممدًا على خشبة الغسل كيوم ولدته أمه عريانًا، وأخي واقف منهار من البكاء والحزن، فقد هوى الجدار الذي كان يستند عليه، أما أنا فلم تدمع عيناي حتَّى وأنا أشاهده وهو يُغسل.

وقفت على مقربة أراقبهم وهم يغسلونه، ثم فجأة خرجت من الحجرة مسرعًا فلم أعد أستطيع تحمل هذا المنظر.

خرجت فإذا بزوجة أبي المتدثرة بالسواد تبكي بحرقة وسط النساء، ونبيل الصغير في حضنها، كان عمره خمس سنوات ..

أخذته من وسط النساء وانتزعته من حضن أمه التّي نظرت إليّ نظرات قلق تملأ عينيها فقلت لها:

ــ اطمئني يا أم نبيل، نبيل مع أخيه.

شعرت براحة نوعًا ما، ولكن لم يزل قلقها.

المهم أني أخذته من وسطهن وخرجت به إلى البحر الصغير على أطراف القرية وأجلسته بجواري، وأسففت النظر إليه، فنظر إليّ وقال:

ــ أين أبي؟

ابتسمت له وقلت:

ــ أنا أبوك.

ــ أنت أخي شريف، أبي مات، أنا أعرف لكنهم يخفون عني.

ــ أبوك مازال حيًا.

ــ لا، أنا أعرف أن أبي مات.

نظرت إليه مبتسمًا، وطبطبت على رأسه،وأمررت أصابعي على شعره الناعم، وضممت رأسه إلى صدري، ظل ثواني ثم نزعها وقال متسائلًا:

ــ أخي شريف، ما هو الموت؟

اندهشت من سؤاله، فأجبت عنه بجواب لا يفهمه كي أرى رد فعله فقلت:

ــ الموت هو أن تنقطع عن متع الحياة ولذاتها.

وفعلا لم يفهم ولم يعلق بل سأل سؤالًا آخر متجاهلًا جوابي:

ــ هل سأرى أبي مرة أخرى؟

ــ أبوك أمامك، وستراه أمامك دائمًا إلى أن ينقطع عن لذات الحياة.

ــ وهل سأموت أنا أيضًا مثل أبي.

ــ كلنا سنموت، ونتحلل ونصير جيفة وترابًا

ــ كيف سنتحلل؟

ــ أن تسيل عيني الإنسان، ويأكله الدود ويصير جيفة ثم يبليه التراب إلا عظمة صغيرة تسمى عجب الذنب

ــ لا أريد أن أموت.

ــ ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

ــ هل الموت ...

وقاطعته لأن الأطفال كثيرو السؤال والجدال وقلت له مقاطعًا:

ــ لا تكثر من الكلام عن الموت أمامي، وهيا ...

ووقفت وقلت:

ــ هيا بنا سننصرف من هنا، أريد أن أستريح من عناء السفر

كنا نسير في الجنازة، وأنا أحاول أن أظهر الحزن مثل أخي عزت، ولكني لم أستطع إظهار الحزن، ولو بنسبة واحد في المليون من الحزن الذي كان محفورًا في وجه أخي عزت.

ولم لا وقد انهد الجدار الذي كان يلوذ به ويستند إليه في حياته، ويضع رأسه على كاهله ويتركه يتصرف له في حياته، وكان يصرفها أحسن التصرف ..

فقد ظل وراءه حتَّى أدخله كلية سيكون منها سفيرًا وربما وزيرًا

وزوجه مثيرة، والدها ذو منصب رفيع، وعلاقات سياسية واسعة، واشترى له شقة فارهة وسيارة باهرة، مع أنه اشترى لي شقة أنا أيضًا، ولكنها ليست في مستوى شقة عزت كما أنه لم يشترِ لي سيارة ..

ولكني الآن سأشتري كل ما يحلو لي، سأكمل دراستي، وأحقق هدفي، وأصبح دكتورًا جامعيًا في تخصصي، ولن أكمل دراستي هنا في مصر، بل في أوروبا، وفي أرقى جامعات أوروبا في كمبردج أو أكسفورد، وسوف أصبح أفضل من أخي وأعلى منه ....

كانت الأيام تمر على وفاة والدي ومازال أخي حزينًا يتآكل من الحزن، شعرت أنه سيموت بحزنه على أبي، ولكن هذا الحزن تبدد وتلاشى في الهواء بقدوم ابنه عادل إلى الدنيا، أقصد ابني من زوجته بعد لقاءنا الممتع، وتحتم علي أن أهنئه على المولود الجديد، وأهنئ زوجته أيضًا بهذا المولود.

كان أخي يجلس مع بعض أصدقائه في صالون الضيوف، فاستأذنت منه كي أهنئ زوجته فأذن لي بابتسامة عريضة.

كانت جالسة على السرير، وابنها في حضنها، وخادمتها تربت على ظهر الطفل الرضيع وهو في يد أمه، عندما رآتني تغير وجهها وازداد حضنها لطفلها، وأشارت للخادمة بعينها أن تنصرف.

اقتربت منها وأنا مبتسم:

ـ ألف مبروك يا مدام فيروز.

نظرت إليّ في خوف ثم قالت:

ـ الله يبارك فيك، ويهبك ابنا مثله.

ـ لقد وهبني فعلا !

ـ كيف، وأنت عريس جديد، وزوجتك لم تنجب بعد؟!

ـ لكنك أنجبتِ.

تغير وجهها، واقتم وزفرت وشهقت واهمكَّت غيظًا وقالت:

ـ ماذا تقصد؟

فصفعتها بقولي دون مقدمات:

ـ عادل ابني أم لا؟

وكاد أن ينفلت لسانها وتصرخ لولا أنها تماسكت وقالت:

ـ أنت مجرم ومنحرف، عادل ليس ابنك، عادل ابن السفير عزت محمد الوحيدي .

ـ وما حدث بيننا !

ـ لم يحدث بيننا أي شيء يا كذاب يا أفاك، وإن لم تخرج من هنا سأفضحك أمام أخيك وزوجتك وأهلها، وأقول أنك تراودني عن نفسي.

صرعني ردها، كنت متوقعًا غير ذلك، متوقعًا أن تكون مثل زوجة أبي، وتعترف بأبوتي لابنها مباشرة بمجرد سؤالي لها، ولكنها كانت ذكية ولبيبة ومتعلمة وليست أمية مثل زوجة أبي، ولكني رغم ذلك كنت متيقنًا أشد اليقين أن عادل ابني مثل نبيل، وليس ابن أخي عزت.

خرجت من هناك وكلي حماس على ترك مصر لأجل غير معلوم،

والعزيمة تسحبني، وعقارب الحقد والحسد تلسعني فأخي يتقدم للأمام يومًا بعد يوم، أما أنا فمازلت في مكاني لم أتقدم ولم أتأخر ...ولكني الآن سأتقدم، وسأطير أنا وزوجتي إلى أوروبا، أنا أكمل دراستي العليا، وهي تكمل كليتها هناك أو تبدأ من جديد.

لم تتردد ووافقتني على الفور، ورافقتني السفر للقارة التِّي سيدور فيها جزء مهم وخطير من حياتي .

وأخذت في إعداد ما يلزم هذا السفر بعد تقسيم الميراث بيننا نحن الثلاثة أنا وعزت ونبيل الذي سيكون تحت وصاية أمه إلى أن يبلغ، مع أن نبيل ابني ويجب أن يقسم الميراث بين اثنين، ولكن لا يضر فهو ابني من صلبي، وحصوله على ميراثه كحصولي عليه ....

لم نودع أحدًا من أهلي، تركتها تودع أهلها، فقد تطول المدة هناك، ولا تراهم لأمد غير معلوم، فأوروبا عالم السحر والخيال كل من يعرفها ينسى الواقع وربما ينسى نفسه وأهله.

(3)

حياتي في أوروبا

استغرقت الرحلة من القاهرة إلى لندن حوالي خمس ساعات ونصف تقريبًا، هبطت الطائرة التابعة لشركة الطيران العربية المتحدة التي تقل حوالي خمسمائة راكب.

كنت أترقب هبوطها على أحر من الجمر، وأنا أتابع اقترابها من المدرج من خلال النافذة التي أجلس ملاصقًا لها بشغف.

انتظرت هبوطها بفارغ الصبر وأخيرًا لامست الطائرة أرضية مدرج مطار «هيثرو» الواقع في المنطقة الشمالية للمطار ..

أنهينا إجراءات الدخول في المطار بسهولة ويسر على عكس ما يحدث في مصر تمامًا من الروتين واللامبالاة والإهمال وعدم الاهتمام بالآخر.

ركبنا تاكسي من أمام المطار، طلبت من سائقه أن يوصلنا إلى فندق «الريتز» الذي قرأت عنه كثيرًا، حيث يعتبر من الفنادق العريقة في لندن يقال إنه تأسس في عام 1906، وأهم ما يميزه عن فنادق كثيرة هو أنه يوفر لكل غرفة دورة مياه خاصة بها.

فندق تاريخي عريق مثل هذا يستحق أن أقطن فيه ولو قليلًا إنَّه يستحق أمثالي فلن يكون الملك «إدوارد الثامن» و «ونستون تشرشل» و القائد الفرنسي المشهور «شارل دي جول» وغيرهم من الشخصيات البارزة التي نزلت فيه، لن يكونوا أفضل مني طالما أني بمالي أفعل ما يحلو لي فما فائدة المال إذا لم نستمتع به؟!

ورغم أنه من الفنادق الباهظة الثمن إلا أني استأجرت فيه غرفة لحين العثور على شقة هنا في لندن أو في كمبردج على حسب استقراري في أي المدينتين، مع أني أحبذ المكوث هنا في لندن عاصمة الضباب.

ورغم أن كمبردج لا تبعد كثيرًا عن لندن حيث تعبد عنها حوالي 80 كيلو متر بالقطار، فعندما تمطي القطار من محطة «**London Kings Cross**» في لندن إلى محطة «**Cambridge**» فلن تستغرق أكثر من خمسين دقيقة في الوصول إلى كمبردج، وربما يزيد الوقت قليلًا إلى ساعة وعشرين دقيقة تقريبًا إذا ركبت الحافلة من محطة «**Stratford Bus Station**»

ورغم عراقة جامعة كمبردج إلا أن جمال لندن جعلني أفكر بعض الشيء أن أدرس في كلية لندن الجامعية بدلا من كمبردج فقد سحرتني لندن، وما أدراك ما لندن الستينات؟!

بهرتني لندن بجمالها، وجمال فتياتها ونسائها .. ما هذا؟ ما هذا الجمال؟ ما هذه الروعة؟

هذه هي الحياة الحقيقية لقد كنا متحللين تحت الثرى حتى صرنا جيفة

نتنة، والآن سأبعث من جديد، وسأحيا الحياة اللذيذة التي كنت أحلم بها طيلة عمري.

سأتطهر وأتجمل وأزيل عن جسدي الجيفة والنتن، وسأفصل حياتي الحاضرة عن ماضيّ، وأنسى السالف، كي أصبح جديدًا جديرًا بالحياة الجديدة .

حقا إنها حياة جديدة لم أرَ مثلها في بلدي، سمعت كثيرًا وقرأت عنها أكثر من كتاب، ولكن معايشتها والتفاعل معها واحتضانها شيء آخر، فليس الخبر كالمعاينة.

حياة مليئة بالصور والألوان والأزواج المتناقضة، أبرز هذه الصور التي شدَّتني وجذبتني نحوها بعنف وغريزة هي صورة الشباب، فالشباب هنا في لندن لا يمثل لونًا واحدًا، بل أكثر من لون، صاخب ثائر على الحياة الشباب في هذه الحياة لا يمثل فترة عمرية، وإنما حياة كاملة تشكل كيانًا خاصًا وأسلوبًا فريدًا منفصلًا عن الزمان وعن المكان وعن حياة الآخرين.

لقد استطاع الشباب هنا بالحرية الفوضوية المتاحة له، والتي حبست في بلدي استطاع بها العبور إلى حياة جديدة.

انسلخ عن ماضيه وعن أهله بل عن نفسه، اختار لنفسه أسلوبًا جديدًا في الحياة أسلوبًا يميزه عن الآخرين في شتى بقاع العالم.

بل ويميزه عن الآخرين في بلده وبين أهله.

رأيت صورًا لهؤلاء الشباب تكاد تكون مطابقة، الشعر الطويل المسترسل المنسدل على الأكتاف، الملابس التي تعصر الجسد وتبرزه

وتشفه أمام الأعين، العري الفاضح، القمصان الوردية والوردة في الجاكتة السوداء ذات الخصر الضيق، والأكمام المزودة بالدانتيلا، والنظارات المستديرة الواسعة التِّي تبتلع الوجه، والرموش الصناعية.

والميني جيب والميكرو جيب والبنطلونات السوداء الواسعة للشابات.

تلك الصورة التي تميز شباب أوروبا في تلك الفترة من الزمن والتِّي انتقلت لنا بالتقليد.

وهذه هي أدهى مثالبنا التقليد الأعمى الملغي للعقل والتفكير، ليس عندنا أصالة ابتكار، واكتشاف وسوف نظل هكذا طالما الحال في بلدنا منحط ومضمحل ومتدهور حيث لا مكان للحريات والعدالة والمساواة في بلدي.

أما أوروبا فإنها تمتلك أصالة، وحيوية، وابتكارات في صورها وألوانها كصورة شبابها التِّي جعلتني أرقص بداخلي، وأركض في شوارعها وطرقها، هائمًا على وجهي بعدما تركت زوجتي في الغرفة التي استأجرناها في فندق الريتز تناجي جدرانها ..

خرجت بعد يوم راحة من عناء السفر أستكشف العالم الجديد وقفت في ميدان «بيكاديللي» الصاخب والضاج بالأضواء والصور المتناقضة والإعلانات والحركة.

لم أقف طويلًا، فالرغبة في الاستكشاف قادتني إلى حيث لا أدري.

قادتني إلى حديقة «هايد بارك» عندما دخلتها بركت من الدهشة والذهول ليس من أجل جمالها وجمال زهورها، ولا من أجل مقاهيها

وبركها الصناعية، وإنما بسبب ما رأيت فيها من العجائب ..

أخذتني رعشة عندما رأيت الحب والجنس يمارسان في بعض أركانها الهادئة، رأيت أثداء ظاهرة، وقبلات حارة، وأجسام شبه عارية، رأيت حجرات نوم مكشوفة أمام الأعين اللاهثة والفروج الجائعة، وكأنها قرية سدوم يأتون في ناديهم المنكر.

الجنس والمضاجعة هكذا ببساطة أمام الناس دون حظر أو ظلف أو رقابة.

ما هذا الذي أرى؟

كل هذا مما رأيته جعلني أكلم نفسي به في صمت، فلم أستطع الكلام، وكأني صعقت مما رأيت، دخلت غرفتنا في فندق الريتز وأنا كاره لزوجتي، لم أستطع سماع صوتها:

ـ أين كنت طوال هذا الوقت يا شريف؟

انفجرت فيها مزعقًا لها:

ـ وما شأنكِ أنتِ؟ نامي واتركيني في حالي

ـ ماذا حدث لك يا شريف؟

ـ قلت لكِ اتركيني ونامي ..... لا ... أنا من سينام.

وتركتها واقفة تضرب أخماسا في أسداس، وألقيت بجسدي على أحد السريرين وأدرت ظهري لها، أفكر في حالي وفي وضعي وكيف سأتلذذ بهذه الحياة الجديدة وزوجتي معي، فقد اشمأزت نفسي من زوجتي إخلاص، كنت أعلم أنها ستقف عائقًا بيني وبين التمتع بحياتي الجديدة في أوروبا.

فوجودها بجواري يذكرني دائمًا بالعفاف والشرف والاستقامة، لذلك تمنيت زوالها ...

مرت أيام لنا في لندن، وحسرتي تزداد يومًا بعد يوم وأنا لا أعرف أتحرك وهي بجواري، ونفقات الفندق الغالية أثقلت كاهلي، فزادت حسراتي وآلامي، فقلت :

ــ أخفف عني وطأة ما ألم بي

فذهبت إلى مدينة كمبردج أنهي أوراق اعتمادي فيها..

لم تعجبني تلك المدينة الصغيرة التي تقع في شرق إنجلترا أي شمال شرق العاصمة لندن رغم روعة جوها،حيث ترتفع عن مستوى سطح البحر حوالي 24 مترًا تقريبًا، ورغم قلة عدد سكانها الذين هم في الغالب أقصد أكثرهم من خارج إنجلترا.

فهي مدينة صغيرة غير مزدحمة تتزين ببعض المعالم السياحية الرائعة مثل متحف «فيتزوليام»، وحديقة باركر، وكنيسة سانت ماري، والحديقة النَّباتيَّة لجامعة كامبردج، وغير ذلك من المعالم المثيرة نفسيًا تجعلك تعشق العالم.

رغم كل ذلك إلا أني لم أحبها، ورغم عراقة جامعتها جامعة كامبردج التِّي ستكون سببًا في رفع مستواي الطبي ومكانتي العلمية، فشغل بالي في التفكير الذي أقض مضجعي، وظللت حائرًا: هل أكمل دراستي في كامبردج في هذه المدينة الصغيرة أم في كلية لندن الجامعية في مدينة لندن مدينة السحر والجنس والتحرر والإباحية والحرية المطلقة؟

هل أنا فعلًا من داخلي أريد المكانة العلمية، والمركز المرموق أم أني أريد اللذة والمتعة والحرية والابتعاد عن القيود والالتزامات؟

وبعد صراع طويل مع التفكير قررت أن أكمل تعليمي هنا في لندن في كلية لندن الجامعية، وهي لا تقل مكانة ومركزًا عن جامعة كامبردج أو أكسفورد، فهي كلية عريقة بلغت عمرًا ليس بالقصير في التاريخ ما يقرب من «192» سنة فقد أنشئت في «11 فبراير عام 1826 من الميلاد»، وأهم ما يميز هذه الكلية هو أنها كلية للعلم فقط دون التفريق بين الطلبة على أساس الدين أو الجنس أو اللون أو العرق..

وهذا ما جعلني آخذ قراري بالانتماء إلى هذا الصرح العتيد، فكيف لي أن أترك لندن؟!فوضبت حالي على المكوث هنا وهيأت نفسي، واستطعت الحصول على شقة صغيرة مفروشة عبارة عن غرفتين وحمامين ومطبخ قريبة من ميدان بيكاديللي في جهة «ويست إند» بإيجار شهري «600 باوند»

فرحت زوجتي جدا بالشقة، طارت من السعادة، أما أنا فقد كنت غير سعيد لوجود زوجتي معي فهي تمثل عائقًا بالنسبة لي تحول دون التمتع بحياتي هنا، فتمنيت أن ترحل، وقعدت أفكر في سبب أو حيلة أرحلها بها إلى مصر ...

وجائتني الفرصة بعد مرور شهر تقريبًا،عندما أحسَّت بتعب، ذهبت بها إلى أحد الأطباء، الدكتور «بيلي كوين» وأخبرني أنها حامل، وعندما عدنا إلى الشقة، قلت لها:

ــ لابد أن ترجعي إلى مصر، وتلدي هناك؟

ــ لماذا؟

ــ يا حبيبتي نحن في مجتمع غربي منحل، ونحن مسلمون شرقيون، ويجب أن يربى ولدي على أخلاق مجتمعنا.

ــ نحن سوف نربيه على أخلاق مجتمعنا ونحن هنا.

وكاد أن يأخذني الغضب ولكني تماسكت وضغطت على شفتاي وقلت:

ــ ولكنك هناك ستكونين بين أهلك وأسرتك، يرعونك ويأخذون بالهم منك، ويقومون على أمرك، ويهتمون بك في شهور الحمل الصعبة، أما هنا فلا أحد سيهتم بك ويراعيك، وأنا سأكون مهتمًا بالماجستير ... أنا أقول ذلك لمصلحتك، وأنا لن أتركك أنت وولدنا ففي كل سنة سأقضي بعض الأيَّام أو الشهور معكما في مصر.

نظرت إلي في صمت وترقب ثم قالت:

ــ لقد بدأت أشك في حبك لي يا شريف .

ــ لا يا إخلاص، كل شيء إلا ذلك، أنتِ تعلمين جيدًا مقدار حبي لك، فنحن تزوجنا عن حب.

ــ حاضر يا شريف .... سأعود إلى مصر، لكن اسمع إذا نسيتني أنا وولدك فسوف نمحيك من ذاكرتنا، ومن حياتنا كلها إلى الأبد .

ــ كيف تقولين ذلك يا روحي؟!، فأنت في دمي، كما أن جزءًا مني في بطنك.

وطارت الطائرة بها متجهة إلى مصر، وطار معها كل التزاماتي وقيودي وصرت حرًا طليقًا في مجتمع الحرية والانطلاق أفعل ما يحلو لي.

وقد كان رفيق دربي في هذا الطريق، والذي أخذ بيدي وعرفني منحدراته وأوديته هو زميلي الفرنسي «أندريه دينيف» والذي كان مراقبًا لي غالب الوقت في المرات القليلة التي ذهبت فيها إلى كلية لندن الجامعية دون أن أشعر أو أحس به حيث كان بصري غالب الوقت مسلطًا على أثداء الفتيات التّي يلوح بعضها عاريًا ينادي الجائعين، كان بصري يتنقل بين الأثداء والأرداف والأوراك، لا أشعر بمن حولي إلا بالأجسام الفائرة الثائرة.

أما أندريه فقد كان متابعًا جيدًا لي، لا أدري ما الذي شدَّه وجذبه إليّ؟، ولم يحاول مرة أن يتقرب مني أو يتعرف عليّ حتَّى جاء هذا الوقت.

في أحد الملاهي في حي«وست هامبستد» حيث يعمل نادلًا فيه، عندما قدم لي كأسًا قال مبتسمًا:

ــ أنت تدرس في كلية لندن الجامعية، وبالتحديد أنت تشتغل في الماجستير وبتحديد أكثر رسالتك في الشذوذ.

رفعت رأسي مندهشًا:

ــ أنت تعرفني؟

ــ أنا أندريه دينيف، من فرنسا وزميل لك في الدراسات العليا، لقد رأيتك أكثر من مرة.

ــ من فرنسا وتكمل دراستك في إنجلترا؟!

ــ كما أنك من مصر وتكمل دراستك فيها.

ــ لكن مصر ليس فيها تعليم يضاهي أو حتى يقارب ولو من بعيد التعليم الفرنسي أو التعليم الإنجليزي.

ــ بصراحة السبب الرئيسي لإكمال دراستي في إنجلترا ليس حبًا في إنجلترا أو في جامعاتها، وإنما لأني أحب الحياة وأحب الجديد فيها، فقد مللت الحياة في فرنسا، مللت ناسها ووجوههم التي لم تتغير، فهي كما هي منذ نشأت فيها، وأنا أعشق التِّرحال وأعشق الجديد، وإنجلترا بلد التقليعات، وبلد التناقضات ..

أريد أن أصاحب أصحاب جدد، وألتقي بزملاء آخرين من أماكن متفرقة من العالم، كي أعرف ثقافاتهم وعلومهم وحضاراتهم، أعشق التجربة والحياة وصراعاتها، أنا مثلًا والدي يعمل رئيسًا لتحرير مجلة أسبوعية في باريس، ومع ذلك سافرت إلى إنجلترا،وأعمل فيها نادلًا في ملهى، ورغم ذلك أيضًا أكمل دراستي،وعن قريب سأصبح دكتورًا في الجامعة .

محشني كلامه وتوغل في بدني، فهززت رأسي، ومددت يدي أصافحه قائلًا:

ــ سأزداد شرفًا ورفعة إذا اتخذتني صاحبًا جديدًا لك، أنا شريف الوحيدي من مصر.

ابتسم لي ومد يده وقال:

ــ بل أنا الذي سيزداد شرفًا بمصاحبتي لشاب مصري عريق تمتد

جذوره لآلاف السنين.

هززت رأسي وقلت مستخفًا:

ــ هذه شعارات فارغة.

ــ ليست شعارات، وإنما هي حقيقة، ويجب أن تفتخر بمصريتك ووطنيتك، أنا مثلًا أبعد عن فرنسا كثيرًا وأمكث في إنجلترا أكثر ما أمكث في فرنسا، ومع ذلك أعتز وأفخر بفرنسيتي العريقة.

ــ على كل حال أنا سعيد جدًا بك، وبصداقتك، وبحبك الشديد لوطنك .

ــ بل أنا أسعد منك.

سعدنا ببعضنا ولولاه لضاع من عمري الكثير هباءً ودون متعة وشغف بالحياة، ولكنت فكرت في الرجوع مرة أخرى إلى مصر.

فقد عرفت منه الكثير، وتعلمت منه أشياء عديدة، وعرفت إنجلترا وفرنسا معرفة حقيقة كأني ولدت فيهما، زورني أماكن كثيرة في إنجلترا زرنا غلاسكو،ومانشستر،وليفربول، وبراد فورد،وأكسفورد،وديربي، وغيرها من المدن.

وزرنا معالم مهمة جدًا في بريطانيا، زرنا حائط «هادريان» الذي يمتد على طول 135 كيلومترًا .

وزرنا المتحف البريطاني وبحيرة ويندر ميري وغير ذلك من الأماكن .

كانت أول زيارة لنا إلى «التيت غاليري» شاهدنا معرضًا كبيرًا تجمعت فيه أعمال الفنانين الإنجليز الشبان زعماء الحركة الجديدة في الفن، رأيته

سعيدًا، ولكني لم أكن سعيدًا فقلت له:

ــ أنا لا أحب الفن.

اندهش مني ونظر إلي وقال:

ــ عجيب، مصري لا يحب الفن !

ـ يا عم أندريه دع عنك هذه الشعارات والأوهام التي غرسوها فينا منذ الصغر، اتركنا في الحاضر، ودع الماضي خلف ظهرك، بصراحة أنا أحب أن أستمتع بحياتي هنا، أعشق اللذة والنساء والخمر والرقص والجنس، وأريد منك أن تساعدني.

ولم يتردد في مساعدتي، وأخذني إلى ملهى راقص في منطقة «توتنهام كورت لورد» وعرفني على فتاة ماجنة تدعى «لوسي» قضيت معها ليلة سافرة في شقتي، وعلى الفراش الذي جامعت عليه زوجتي مرات عديدة.

كان أجمل ما فيها أردافها المثيرة وفلقتيها المنبسطتين، كانت أول مرة أدخل ذكري كاملًا في دبر امرأة، لقد كانت فتحة دبرها واسعة من كثرة علاقاتها المنحرفة؛ لذلك لم أجد صعوبة في إدخال ذكري فيها.

أمتعتني متعة لم أجدها في حياتي، أول مرة أحد يمص لي ذكري بشراهة، عشت معها ساعات من الشهوة الحيوانية البهيمية، فعلنا كل شيء، وجربنا أكثر من تسعة أوضاع أملتها علي وساعدتني فيها، لقد كانت خبيرة في فنون الجنس وإمتاع الرجل.

وقبل أن تنصرف، وهي ترتدي ملابسها أعطتني عقار يدعى « L.S.D» فقلت لها مندهشًا:

ـــ ما هذا؟

ـــ هذا العقار سينسيك آلام الحياة .

ـــ مخدرات؟

ـــ هذا الاسم بطل وانتهى من زمان، الآن اسمها مهدئات، وهذا العقار من المهدئات، وهو غالي الثمن في الصيدليات، ولكني سأبيعه لك بخمسة جنيهات استرليني .

ـــ ماذا؟

ـــ إنه عقار «L . S . D» واسأل عنه ستجده بسبعة جنيهات استرليني، ولكن بعد الذي حدث بيننا الليلة سأبيعه لك بخمسة جنيهات استرليني.

اشمئززت من الفتاة، وقلت لنفسي بعدما انصرفت:

ـــ ما مصيري الآن؟ لقد زنيت بمدمنة مخدرات، لابد أن أفحص نفسي، وأخذت مني خمسة جنيهات وأعطتني العقار الذي لم يمكث في يدي وقتًا طويلًا فقد رميته في نهر «التيمس» أمام عيني «أندريه» أثناء تمشينا على شاطئه في وقت راحته من عمله، وقد أخبرته بما حدث بيني وبينها، فلم يعلق بكلمة على ما حدث بيني وبينها إلا أنه علق على إلقائي لهذا العقار في ذلك النهر فابتسم وقال:

ـــ فعلت خيرًا برميك لهذا العقار، وعدم تجرعك إياه، ذلك العقار هو الخطوة السابقة لإدمان الهيروين والكوكايين.

فزعت قائلًا:

ـــ هيروين؟!

ــ نعم، فأولى خطوات الإدمان هنا هو تعاطي المارجوانا ثم عقار «L . S . D» ثم الهيروين والكوكايين ثم الموت

ــ الموت؟!

ــ نعم، ألا تصدقني؟

ــ بلى، أصدقك.

ــ إذن تعالى معي.

ــ إلى أين؟

ــ سأريك شيئًا.

وأخذني إلى مستشفى ضخم يسمى « سوث هول» «south holl» على بابه وقفت وقلت:

ــ ما هذا؟!

ــ هذا المستشفى الضخم مخصص فقط لعلاج المدمنين، لو دخلته ستجده زاخرا بآلاف المدمنين والمدمنات.

ودخلنا وتجولنا في طرقاته وصالاته، ورأينا مئات الحالات المثيرة للألم واللوعة والبث.

وجوه صفراء شاحبة، اشتفها الإدمـان ... غارت فيها العيون، وأحاطت بها هالات سوداء ...

رأينا وجوها على شفا الموت، وسمعنا أصواتًا تنبعث من الحجرات تبكي أو تستنجد، أو ترتجف مع نشيج طويل ..

فزعت مما رأيت فخرجت مسرعًا منه، وهو يتبعني حتى لحقني، تمشينا

ونحن نتبادل أطراف الحديث، ومازال الوجوم يسيطر عليّ ، قلت:

ــ حقا، الحلو لا يكتمل أبدا، لقد بهرتني لندن لدرجة الجنون والهوس.

نظر إليّ مبتسمًا وقال:

ــ في كل مكان ستجد ما يسيئك وما يفرحك، ففرنسا مثلا إذا أتيت إليها ستنبهر بها أكثر من انبهارك من لندن، ستراها واحة من الخيال، ومع ذلك ستجد فيها السيء يسود ويعم .

اتسعت عيناي من الفرحة، وقلت منجذبًا إليه بقلبي وعقلي:

ــ فرنسا ! ! باريس !! في خطتي .. حلم جميل وسوف أحققه.

ــ أنا أدعوك لزيارتها نهاية هذا العام، وستكون في ضيافتي أشهر الصيف كلها.

انبجست من الفرحة وقلت:

ــ حقًا؟! أنا لا أعرف كيف أشكرك، أنتَ حقا صديق مخلص.

ــ ليس ذلك فحسب، وإنما سأكون مرشدك في باريس، ستشاهد كل ما تتمنى، وسترى الأحلام حقيقة في باريس.

ــ باريس هي وطن الأحلام .

ــ دعك من هذا الكلام الآن، فأنا جائع، وقد تعبت قدماي من المشي، هيا نأكل في أي مطعم .

ــ أي مطعم؟! نحن شخصيات مرموقة، ولا نقل شأنا عن زوار «مكسيم»

ــ مكسيم؟!

ــ نعم سنأكل في مكسيم .

ــ ولكن بيننا وبين مكسيم مسافة طويلة وأنا جائع .

ــ تحمل، سنركب المترو وسنصل بسرعة إن شاء الله.

وعندما وصلنا «مكسيم» رأينا شيئًا غريبًا، وجدنا كل الموجودين فيه يلتفون حول إحدى المناضد يصرخون فرحًا، وعندما استكشفنا الأمر وجدناهم يلتفون حول «بول، ورينجو، وجورج وجون» خنافس الغناء الإنجليزي .

والفتيات حولهم منهارات، وهن يأخذن منهم «أوتو جرافات وكلمات للذكرى» حتى هوت إحداهن على بول تقبله حتَّى كاد أن يختنق لولا قيام حراسهم برفعها عنه ..

تعجبت مما رأيت، وتعجبت أكثر لما وجدت «أندريه» يأخذ منهم أوتوجراف وكلمة للذكرى، وهو سعيد يضج قلبه وعيناه بالسرور .

اندهشت وسألته ونحن نأكل عن السبب، وعن هذه الحالة التي رأيناها، فقال وهو يقطع قطعة لحم بالسكين ويلحمها شوكته ويضعها في فمه ويبدأ في المضغ:

ــ هؤلاء هم فرقة البيتلز الذين غيروا أوروبا كلها، بل امتدَّ تأثيرهم ليشمل أمريكا كلها، هؤلاء حقًا فهموا طبيعة العصر وفهموا الشباب الثائر، وعرفوا أن موسيقى «بيتهوفن ومزوارت» لم تعد تناسبهم، وأن «فالسات شتراوس» لم تعد تعزف إلا في الأفلام التاريخية، ولابد من موسيقى جديدة تمتلأ بالانطلاق والحيوية وتناسب ميل الشباب إلى

العنف والضجر والصخب والثورة، وهم استطاعوا فعل ذلك، فانجذب الشباب إليهم وعشقهم، وصاروا بالنسبة لهم كالماء والهواء.

كنت أمضغ وأنا أستمع في إنصات ثم قلت مندهشًا:

ــ إلى هذه الدرجة؟!

ــ وأكثر ... لقد غيروا أوروبا وأثروا في كيانها، ألا تعرف أن ملكة بريطانيا منحتهم أوسمة «أعضاء الإمبراطورية البريطانية» لقد غيروا الشكل والمضمون، وصار الشعر الطويل هو الموضة، والألوان البنفسجية والحمراء هي الصيحة التي يرقل خلفها الشباب، ويختارونها لقمصانهم وأربطة أعناقهم ..

فهمت من كلامه أن الخنافس هم الزعماء والآباء الروحانيون للثورة الجديدة في أوروبا، فكان عليّ مسايرة الموضة لئلا يقال عليّ متخلف في هذا البلد، فأطلقت شعري يتدلى على كتفاي وصارت قمصاني نصفها بنفسجي والنصف الآخر أحمر، وصارت أغاني الخنافس مثل «**help**» أي النجدة و «**it is ahard days night**» «ليلة يوم شاق» و«**please please me**»

هي الكلمات التي تتردد على أذناي وتتحرك بها شفتاي ليل نهار قلدتهم تقليدًا أعمى، وضاع بداخلي الماضي وعشت الحاضر في لندن كما يعيشون، ونسيت وطني وزوجتي وولدي أحمد الذي لم أرَه حتى الآن إلا في صورة باهتة لا تظهر ملامحه بوضوح ....

وكان مفترضًا عليّ أن أقضي الصيف في مصر كي أراه لأول مرة

وأطمئن عليه وعلى أمه، ولكن دعوة أندريه لي لزيارة باريس سلبت لبي، وأنستني مصر وما فيها حتى ابني الوحيد أحمد ...

وذهبت معه وتركت خلفي طيفًا يؤرقني في سفري، ولكن هذا الأرق، قد زال وتبعاته قد انمحت وانمحت معها ذاكرتي الماضية بما فيها، عندما وقعت عيناي لأول مرة في حياتي على برج إيفل،أرقلت نحوه وصديقي يتبعني، ولمسته وكأني في حلم وشخصت ببصري لأرى نهايته حتَّى حسرت عيناي فأخفضتها وقلت:

ــ لم أكن أتصور أنه بهذا الارتفاع ... رؤيته في الصور، وفي الأفلام غير رؤيته في الحقيقة .

نظر إليّ مبتسمًا وقال مفتخرًا:

ــ ارتفاعه حوالي «984» قدمًا، من أطول الأبراج في العالم وأشهرها، لا يوجد في أي مكان في العالم برج في فخامة وعظمة وشهرة هذا البرج.

فترت ابتسامتي من كلامه، وداخلني الغضب، وكدت أحرك لساني مفتخرًا بالأهرامات وبقايا الفراعنة، ولكن رجعت إلى نفسي وقلت في خاطري:

ــ بماذا أفتخر عليه؟ أأفتخر ببعض الحجارة، وببقايا الظالمين المتكبرين في الأرض من الطواغيت ومن عاونهم ... أصمت أفضل، فالصمت حكمة كما يقولون، خاصة في مثل هذا الموقف فإنَّه من الغباء أن يفتخر الإنسان ببعض الحجارة الصماء من الأزمان الغابرة لا تنفع ولا تضر، تشهد على ظلم الظلمة وجبروت الطغاة من حكام مصر الأوائل، وصديقي أندريه

غبي أيضًا؛ لأنه يفتخر بقطعة من الحديد الذي لا ينفع ولا يضر، يتناوبه الصدأ تآكلًا لولا اهتمامهم المستمر بطلائه، فما أكثر الأغبياء في هذا العالم !

وتحرك فمي مُبديًا نصف ابتسامة ساخرة، ثمَّ قلت وقد عادت نفسي إلى طبيعتها المرحة:

ــ عليك أن تريني كل شبر في باريس بل في فرنسا كلها.

ــ أنا تحت أمرك، خادمك المطيع ياسيدي.

وابتسم وهو يقولها وابتسمت فقال لي:

ــ هيا إذن ننصرف من هنا، فأبي وأمي وأختي سيمون في انتظارنا.

وعندما وقعت عيناي على «سيمون» ارتعش فؤادي رعشة قاتلة، وعندما صافحتها تحرك فرجي مصافحًا إياها بعنف وحرارة ..

كانت فتاة تضج بالأنوثة الثائرة وبالإثارة والإغراء، بت ليلتي ساهرًا متخيلًا إياها في أحضاني، وكدت أن أجنَّ لخلو حضني منها... فقمت وارتديت ملابسي، وتسجيت بمعطف أنيق أحمر اللون، اشتريته من «كانبري ستريت» في لندن بخمسين جنيهًا استرليني ...

وطلبت إلى أندريه أن يتجول بي في شوارع باريس ليلًا، لم يتردد وخرجنا يلسعنا البرد، برد باريس القارص، وقد كان المطر رذاذًا، ومع ذلك تهادينا حتَّى وجدنا أنفسنا في «بيجال» التي لا تنام بالليل، أُسكت بما رأيته في «بيجالpigalle»

أسكتتني وأذهلتني نواديها وملاهيها الليلية التِّي تمد أذرعها نحوي كالأفاعي ..

إلا أن أفعى ملهى «الحصان المجنون» هي التِّي جذبتني وشدتني بعنف، بعدما رأيت صورة عارية تمامًا لإحدى راقصات «الستر بيتيز» تكاد تبتلع مدخل الملهى ...

استدرت نحوه رغم رفض «أندريه» دخولي لذلك المكان ودخلته وخلفي أندريه الذي كان متضجرًا من هذا الوضع ..

سخت في شهوتي التي هاجت، وقذفت بمنيها اللزج، عندما أخذت راقصة الستر بيتيز صاحبة الصورة تتجرد من ملابسها قطعة قطعة بإثارة وشهوة أمام العيون الجائعة، والأفواه اللاهثة ...

لم أستطع التحكم في نفسي، وفي غريزتي المائجة الهادرة،ودخلت حجرة استضافتي في منزل أندريه، ولم أفق من سكرتي بالحصان المجنون بعد ...

وتجرَّدت من ملابسي، وانقضضت على السرير أحتضن الوسادة الزرقاء متصورها «سيمون» أو راقصة الستر بيتيز التي تجردت من ملابسها جهرًا أمام الذئاب اللاهثة.

وظللت أفرك وأدعك في ذكري حتَّى انسابت من بين عظام ظهري منابع الشهوة الفائرة تبدد أنوار العفاف وتهتك أستار الحياء، وتهث جسدي هثًا مبيدًا، وتدفع بي مرات ومرات لزيارة حانات «بيجال» ومحلات «الستر بيتيز الجنسية»

متلذذًا وشاهقًا شهقات غريزية ثائرة بمشاهدة راقصات الستر بيتيز وهن عرايا يتحسسن عورتهن ويهززن أثداءهن أمام عيون الشباب الثائرة، وأفئدتهم الضعيفة التي تقضقض مشاعرهم كل ليلة على رضا منهم.

وبدأت قدماي تهدج بي نحو ظلمات الجنس والرذيلة في حانات باريس وملاهيها الليلية،وفي بيوت الدعارة أتنقل من سرير إلى سرير كل ليلة مع فتاة غير سابقتها وغير لاحقتها، فقد أدمنت الجنس والزنا وحتى اللواط مع أحد الفتيان الذين يقدمون كسلعة رائجة لزبائنها في بيوت الجنس والمتعة.

هتكت عرض شاب في مقتبل شبابه وعنفوان أمره، لقد كان ممتعًا جدًا، عندما أدخلت ذكَّري في دبر فتى يتأوه مثل العاهرات مع أني أدخلت ذكري قبل ذلك في دبر فتاة، ولكن إدخاله في دبر صبي أو رجل شاذ يرتدي قميص نوم له طعم آخر.

هكذا كانت حياتي في باريس؛ مارست الزنا والشذوذ حتَّى صار هذا الأمر يجري في دمي.

وعندما جاء وقت الرحيل عن باريس والعودة للندن مرة أخرى طار جنوني، وأحسست بروحي تنسل من بين ضلوعي، لا أعرف لماذا؟

مع أن لندن هي الأخرى مدينة اللهو والمتعة خاصة في حي «سوهو» ذي النفقات اليسيرة، ولكن فرنسا غير لندن، فرنسا صارت بالنسبة لي أم وزوجة تمتعني وتسليني ..

صارت دمًا يجري في عروقي .. عشقتها وعشقت ما فيها وعشقت اللذة فيها ..

لذلك اتَّخذت قرارًا خطيرًا بعد تفكير طويل قررت أن أغير دراستي، وأدرس في كلية الآداب في جامعة السوربون بدلا من الطب، خاصة وأنا

مهمل لدراستي وغير مهتم بها، والطب يحتاج تفرغًا تامًا واهتمامًا مثاليًا، لكن أنا أسعى وراء المتعة هذا كل ما يهمني الآن، وباريس هي التي ستشبعني وتروي ظمئي، لا أريد غيرها.

كان من الممكن أن أنقل مكان دراستي فقط في نفس التخصص في الطب، ولكني لا أريد أن أشغل نفسي بشيء إلا باللهو والإشباع الشهواني، وكلية الآداب لا تحتاج إلى جهد كبير أو تفرغ تام، لذلك سأبدأ من جديد أدرس كطالب مبتدئ في الجامعة وليس كخريج يشتغل في الماجستير، سأرجع بعمري ثماني سنوات للخلف كأني متخرج من الثانوية اليوم.

سأبدأ من جديد في كلية الآداب في جامعة السوربون ليس حبًّا في الآداب أو في السوربون، لا، ولكني أريد أن أبقى في باريس بدون التزامات نحو مهنة مهمة وخطيرة مثل الطب، وبدون تفكير في الدراسة ومتاعب الماجستير وغير ذلك .

أريد اللهو واللذة أقولها بملء فمي ولا أبالي بأحد إلا نفسي، وباريس هي لذَّتي ولن آخذ اللذة فقط بل أيضًا سآخذ العلم وليس في جامعة عادية بل في جامعة السوربون العريقة التي تضرب بجذورها في التاريخ منذ إنشائها عام 1253 من الميلاد، وقد تخرج منها عمالقة في فنون كثيرة من جميع أنحاء العالم أمثال أحمد شوقي أمير الشعراء، والمؤرخ «جوستاف لوبون» والذي اهتم بالطب النفسي مثلما اهتممت به، وكان حلمًا في حياتي أن أصبح طبيبًا نفسيًّا، ولكن «ليس كل ما يتمناه المرء يدركه»،وأيضًا تخرج من السوربون طه حسين الأديب المعروف الذي تخرج من نفس

الكلية التي انتسبت إليها، وهي كلية الآداب، وقد أكون اخترت هذه الكلية اقتداءً بطه حسين رغم أني لا أميل له ولا إلى كتاباته.

ولكني قررت ألا أفارق باريس، قررت ألا أفارق مشبعة شهوتي عاصمة الخيال والنور، رغم فراقي لصديقي أندريه الذي تلقى الخبر كالصاعقة على مسامعه، وحاول بكل الطرق أن يثنيني عن هذه الرغبة الطائشة، ولكني كنت عزمت عزمًا أكيدًا على هذا الاختيار، ولا يهمني أحد.

نصحني كثيرًا ألا أفارق الماجيستر الذي أشتغل فيه في الطب النفسي، وألا أفارق لندن خاصة، وأن فرنسا في هذه الأيام غير مستقرة في أوضاع كثيرة يشوبها القلق والاضطراب والعنصرية، واندهش من هذا القرار الانهزامي الذي لا يعرف مبرره فكيف أترك الطب وأدرس الآداب؟! لقد كان صديقًا نصوحًا، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل.

وكما نصحني بصدق نصحته أنا أيضا وأنا غير جاد ولا صادق في النصيحة مثله، نصحته أن يترك لندن ويدرس في باريس الطب حتى نكون معًا في بلد واحد، ولكنه رفض وقال لي:

ــ إنه مبدأ، وأنا لا أدع مبادئي أبدًا تحت أي ظرف، قرار أخذته أن أكمل في لندن، ولا أرجع في قراراتي أبدًا.

فرحت من داخلي لابتعاده عني وعن سيمون، لقد كنت أحسُّ أنه العقبة والعثرة في طريقي إليها، وخفت من أن يطردني من بيتهم في غيابه متحججًا بعدم وجوده في باريس، ولكنه فاجأني بقوله:

ــ على كل حال، أنت حر في قراراتك وفي حياتك ... ولا مانع من أن تجرب، واعتبر بيتنا بيتك في غيابي، واتخذ أبي والدًا لك وأمي أمًا لك وسيمون أختا لك، أنت مسلم وأنا أعرف أن المسلمين عندهم شرف ويحملون الأمانة بصدق.

ابتسمت وقلت:

ــ ليس كلهم .

اندهش وقال:

ــ ماذا تعني؟

ــ أقصد أن المسلمين ليس كلهم عندهم شرف وأمانة، فالمسلمون كثير منهم لا يطبق الإسلام، ولا يتخلق بأخلاقه.

ــ لكنك لست من هؤلاء

هززت رأسي وقلت:

ــ نعم، أنا لست منهم، ستجدني أمينًا، وكما قلت أبوك أبي وأمك أمي.

وانتظر أن أكمل كلامي لكني سكت فاندهش وقال:

ــ نسيت جملة وأختي أختك.

ــ نعم أختي إذا كان أبوك أبي إذًا أختك أختي، لا تقلق يا أندريه سأكون مخلصًا ووفيًا معهم إلى أبعد الحدود، كأنك موجود بالضبط.

ــ وآخر شيء أقوله لك، إذا لم ترتح في باريس، ولم تشبع كلية الآداب رغبتك وأحلامك لا تتردد في الرجوع إلى لندن واستكمال دراستك في الطب.

ــ أكيد يا صديقي، فأنا أحب التجارب، ولا أحب أن أعمل شيئًا لا تهواه نفسي.

وكاد قلبي أن يطير فرحًا برحيل أندريه وبقائي في منزلهم الجميل ذي الحديقة الصغيرة التي تمتلأ بالورود.

سأظل بالقرب من سيمون وسأكون أنا وهي في مكان واحد، فأكيد أنا في بالها كما هي في بالي، أنا أعرف أن الأجنبيات عمومًا وخصوصا الأوروبيات يحببن القادمين من بلاد أخرى وخاصة بلاد العرب، ويرغبن في ممارسة الجنس معهم.

وبرغم سيخاني في بحر الرذيلة وزناي بكثير من فتيات باريس العاهرات إلا أن سيمون كانت بالنسبة لي حلمًا حلمت بتحقيقه كثيرًا ...

كنت أراها فتاة أخرى غير الفتيات العاهرات التي زنيت بهن، فقد كانت تصدني بنظراتها غير ما كنت متوقعًا، وغير ما كان في بالي، كانت تتحاشاني وتصدني وتتجاهلني كأني غير موجود أمامها، مع أني كثير الظهور أمامها على الفطور والغداء، وأجلس كثيرًا في المنزل، ولا أخرج إلا سويعات قليلة عندما أكون ذاهبًا إلى السوربون لاستكشاف الأمر والوضع في هذه الجامعة العريقة التي سمعنا عنها أساطير.

كان صدها وتجاهلها لي حبلًا يجذبني نحوها أكثر وأكثر كما قال الشاعر:

وحب شيء إلى الإنسان ما منعا

وكما يقال في الأمثال: «الممنوع مرغوب»

تمنيت أن ألتقي بها ولو لمرة واحدة فقط، وبعد ذلك أزدريها وأترك لهم منزلهم اللعين،وأدعها لصديقها الماجن«جون لولوش» يتسلى بها كما يفعل بها دائمًا الفحشاء على مرأى ومسمع من والدها الديوث.

وتهيأت للأمر في اليوم الذي تذهب فيه الأسرة للكنسية لأداء صلواتهم، وكنت أعلم أنها لا تذهب معهم، وكانت تظل نائمة حتى المساء.

تجرعت الخمر بشهوة حتى انثنت قدماي في سيرهما، وأنا أدلف إلى حجرتها في صمت وسكون .....

فوجئت بي في حجرتها، وفوجئت أنا بيقظتها فقد كانت تنام في هذا الوقت، فلماذا هي مستيقظة الآن وفي كامل نشاطها؟ فقد كانت ترقص وتحرك شفتيها بإحدى أغاني الخنافس الذين تركتهم في لندن.

اندهشت من دخولي مخمورًا وقطعت رقصتها وقالت:

ــ ما بك يا شريف؟ ماذا تريد؟

قلت ببجاحة وبدون حياء أو ستر وأنا أتمايل من السكر:

ــ أريدك أنت يا سيمون .

ــ ماذا؟!

هجمت عليها وأمسكت ذراعيها الطريين وقلت:

ــ أنا أعشقكِ من أول ما وقعت عيناي عليك، أنا أعشقكِ أكثر من لولوش الماجن .... وأريدك أن تكوني لي وحدي .

دفعت قبضة يداي عنها وقالت:

ــ أنت مجنون .

ــ أنا مجنون بك .

ــ إذا لم تخرج من هنا الآن بشرف سأبلغ عنك الشرطة.

ــ أنا لن أخرج من هنا حتى تهبيني ما تهبينه لجون لولوش الماجن وحتَّى أستمتع بجسدك الشهواني هذا، رفعت يدها وصفعتني على خدي الأيمن، فما كان مني إلا أن دفعتها فهوت على السرير الوردي، وهويت فوقها .

فاستغاثت وصرخت وهي تحاول مدافعتي، وقربت فمي من شفتيها أرتشف منهما أريجها، وكانت تتلوي تحتي، وتحاول إبعاد فمها عني، وهي تصرخ وتستنجد بمن ينجدها.

دخل والدها على صراخها، لا أدري لماذا رجع باكرًا عن كل مرة، أم أني لم أشعر بالوقت الذي انفلت من بين يدي ولم أفعل شيئًا بسيمون .

جذبني من فوقها ودفعني بقوة فخررت على الأرض، ورأيت عروق وجهه تنبض بالغضب وصرخ قائلًا:

ــ اخرج من هذا المنزل حالا يا كلب .... ولولا ما بينك وبين أندريه لكنت أبلغت الشرطة ... لكني سأكتفي بطردك من هنا كالكلب، هيا اخرج ولا أرى وجهك أمامي في أي مكان بعد الآن، واقطع علاقتك بأندريه وإلا سأسجنك بتهمة التحرش والاعتداء على قاصر.

نظرت إليه في ذل والعار يكسوني وأنا مطرود طرد الكلاب لملمت حاجياتي وأشيائي وخرجت من هناك إلى الشارع، أسير ولا أدري أين المصير؟ وماذا سأفعل؟

تركت نفسي لقدماي أنظر حولي يمينًا وشمالًا خائفًا مترقبًا، ربما أنه أبلغ الشرطة وهي تبحث عني الآن، رقلت في سيري وهرولت في خطواتي.

أوقفت تاكسي كي أبتعد عن هذه الأعين التي ترقبني:

ــ إلى أين يا سيدي؟

ــ أي مكان .

ــ لابد أن تحدد وجهتك يا سيدي أنا لا أعلم أين تريد الذهاب؟

نظرت إليه مفكرًا ثم قلت:

ــ إلى سان ميشيل .

ــ تحت أمرك ياسيدي.

وصلت سان ميشيل، فدرمت نحو إحدى المقاهي وطلبت كوبًا كبيرًا من القهوة، تجرعته بسرعة، وقمت أبحث عن مأوى وجدت أمامي فندقًا صغيرًا، سعيت نحوه وأخذت حجرة في هذا الفندق المتواضع.

أبدت بحجرتي الصغيرة أضاجع الخمر، وقطعت صلتي بالعالم الخارجي، ولم أعد أرسل خطابات لزوجتي منذ فترة أظنني نسيتها هي وأحمد، وتوقفت عن الذهاب إلى السوربون واليأس يكويني، ويقطل أملي في الحياة، وغشيتني رغبة انتحارية .. كادت أن تحسمني .

ولكني قصلتها ومسحتها وقددت إقامتي الغبراء في حجرتي العفنة، وخرجت إلى الشارع أعاقر وجوه الناس التي غابت عني زهاء الشهر ....

لم أكن أعلم أني سأصطدم بجدار صلب يخر فوق رأسي ويعيدني إلى حميتي ووطنيتي وانتمائي لديني ووطني وأهلي وناسي ولو لفترة وجيزة

بعدما أغطشني عشق الغرب وناسه وبلاده المتقدمة حتى أسحقني هذا الحب عن وطني، وبني قومي

انكوى فؤادي وتلظى شعوري وإحساسي وبعثت غيرتي على ديني وناسي من رقدتها .. وارتعشت أطرافي عندما رأيت أعوان الصهيونية يحملون لافتات وصناديق حديدية صغيرة في مظاهرة حاشدة تجوب شوارع باريس، وهم يهتفون وينعقون وينعرون بالجملة المكتوبة على اللافتات وهي:

«قاتلوا المسلمين»

طما الدم في رأسي وغلى جسدي كما يغلي المرجل، وكدت أفقد أعصابي صارخًا فيهم:

ــ «بل قاتلوا الصهاينة وقاتلوا الصليبين وأعوانهم»

ولكني فكرت في مصيري بعدما أقول ذلك، فصربت لساني وظلفته داخل فمي، وسرت عن جنب أبصر وأراقب تلك المظاهرة التي تضخمت واستفحلت وصارت شيئًا غير معقول شيئًا مهولًا .... فقد زاد عدد السائرين فيها بعدما ألهب الهاتفون فيها الحماس الصليبي الغربي، وزخرت تلك المظاهرة بشخصيات بارزة عرفت بعضهم، ممن أعشقهم وأعشق كتاباتهم مثل «جان بول سارتر» الفاسق الذي رأيته يسير تحت هذه اللافتات مناديًّا بمقاتلة المسلمين بحماس، وعصبية، وعنصرية هتلرية.

تعجبت من أمره ساخرًا وبصقت عليه في عقلي بعدما هوى منه إلى الأرض السفلى وبصقت على نفسي، لأني أحببت شخصًا عنصريًا مثل هذا

وأحببت كتاباته وآرائه ومقالاته ....

ولكني كرهته وكرهت هؤلاء المتظاهرين والهاتفين والمتبرعين بأموالهم من أجل قتالنا، وتدميرنا الذي بات وشيكا، فقد أحسست بقربه لما رأيت هذا الحشد الكبير متظاهرًا متبرعًا من أجل دحرنا وتدميرنا ...

وخالجني شعور قاتم حالك بالهزيمة والعار عن قريب، وكان ما شعرت به ....

فصعقت كما صعق غيري من المسلمين، والعرب بهزيمة ونكسة وعار «يونيو 1967» الذي صار حديث العالم ...

ظل فمي موصدًا ثلاثة أيام لا ينبس بحرف واحد، وعانقني اليأس من جديد، واضطرم فؤادي نارًا، وتصليت بنار العار وتصلبت، وتقليت على جمر الغيظ وتقلبت، وفار فؤادي غيظًا، وتميز حقدًا على هذا العالم المنافق، وتلظى غضبًا من الآخرين وتزيد حنقًا.

إنه شعور المهزوم المخذول في دولة المنتصر الغالب، شعور العار والشنار، والذل والهوان، والبث والخذلان.

لم أستطع الخروج من الفندق وأرى وجوه المنتصرين شامتين ساخرين مستهزئين بي، خاصة وأن فرنسا كلها وباريس خاصة كانت تعج باليهود وبالصهاينة وأعوانهم في كل مكان، وخاصة رجال الموساد الذين كانوا يتربصون بالعرب عامة وبالمصريين خاصة، ويحاولون معرفة شعورهم ورد فعلهم عن الهزيمة وكانوا في كثير من الأحيان يحاولون تجنيد بعض العرب وبعض المصرين لحسابهم، وقد نجحوا في حالات كثيرة مع

الانهزاميين .

ورغم انحرافي وكثرة زلاتي وعثراتي إلا أن كل هذا أهون من الخيانة العظمى لوطن مسلم نشأت وترعرعت فيه رغم كرهي من بعض الأشياء فيه، لكن هذا ليس داعيًا لأبيع ديني ووطني.

أنا منحرف شهواني شاذ فاسق نعم لكن خائن لديني ولوطني ولأهلي ولناسي لا، ولحساب من ؟ الصهاينة، لا، ومليار لا

كساني الذل والفضيحة، فأبدت في حجرتي ولم أبرحها، كيف أخرج لهم ليستهزئوا بي، ويقذفوني بسخرياتهم اللاذعة، كيف أقابل زملائي في السوربون؟!

وقف «أحمد شريف» ينفث دخان سيجارته، وهو ينظر من شرفة بلكونة الفيلا، يتابع السائرين، وهو غير عابئ بهم وخلفه مكتب والده عليه مذكراته مطوية، وبجوارها نظارة أحمد الطبية الخاصة بالقراءة، وهو يحدث نفسه:

ــ كم أنت متناقض يا أبي؟! أنا لم أعد قادرًا على فهمك. شخصيتك حيرتني وسوف تحير العالم، عندما تنشر هذه المذكَّرات، كيف تكون شهوانيًا تكره بلدك، وتهرب منها تلهث وراء الرذيلة، وتنحرف هذا الانحراف الفظيع في بلدك، وفي أوروبا وفي نفس الوقت تأخذك الحمية والغيرة على دينك ووطنك،وتحزن على ما حل بمصر وتقبع في غرفتك خائفًا من العار والذل؟!

أناس كثيرون بصفاتك فريسة سهلة للتجسس، وخيانة البلد، كما

فعلت «هبة سليم» وغيرها من قبل، ولكن أنت لم تكن كذلك

يصمت فجأة ويتوقف عن نفث دخان سيجارته ؛كأن شيئًا أصابه، ثم يلتفت برأسه للخلف دون أن يدير جسمه ينظر لمذكَّرات والده ثم يقول لنفسه بصوت مسموع:

ــ ربما أنه خان وطنه، ولم لا؟! أنا لم أنته من قراءة مذكراته بعد، سيتضح ذلك عندما أنتهي من القراءة .

وفجأة يسمع صوت جرس الباب، يرفع رأسه منتبهًا لصوت الجرس، ينظر للمذكَّرات مرة أخرى،ثمَّ يقترب منها ويضعها في درج المكتب، ويخرج من حجرة مكتب والده منحرفًا نحو باب الفيلا ....

يفتح الباب يجد في وجهه «موسى عبد الشكور» ابن عم والده، وعمدة القرية، وخلفه خفيران ببندقيتين معلقتين على كتفيهما يجده مبتسمًا يقول له:

ــ لعلك تكون ارتحت من السفر يا ابن أخي شريف، الله يرحمه لقد تركناك حتَّى ترتاح، وأنا جئت إليك بنفسي، كي تشرفنا في دارنا المتواضعة، زوجة عمك وأولاد عمك متلهفون لرؤيتك .

ــ أنت موسى عبد الشكور، ابن عمي عبد الشكور عم والدي .

ــ لي الشرف يا أحمد باشا، أن تكون قريبًا لي.

ــ لا تقل ذلك يا عم موسى ولا تنتقص من نفسك، أنت ابن عم والدي، وفي مقامه .

ــ إذن لماذا أنت بعيد عنا هكذا، تعال معي، نحن مجهزون لك وليمة

كبيرة، والليلة فيها احتفال كبير بتشريفك لقريتنا التي لم تزرها منذ زمن.

يهز أحمد رأسه ويقول:

ــ لا داعي لذلك، ربما أمكث يومًا أو يومين ثم أرحل من هنا.

ــ والله العظيم لتأتين معي، حتى ولو ساعة واحدة، لابد أن تكون مكرمًا معززًا، تقضى لك جميع طلباتك .

يبتسم أحمد ثم يقول:

ــ سآتي يا عمي موسى، اسبقني، وساعة وآتي إليك، لكن الدار أنا لا أعرفها.

ــ لذلك أحضرت هذين الخفيرين يحرسانك وينتظرانك، حتَّى تكون جاهزًا يدلانك على طريق الدار، وهي ليست بعيدة عن هنا.

وأعطى العمدة موسى الأمر لخفيريه أن ينتظرا «أحمد شريف» في الخارج حتَّى يتهيأ ويكون جاهزًا للخروج معهما إلى دار العمدة ...

سار أحمد نحو مكتب والده ببطء وهو يحدث نفسه:

ــ أنا كنت ناقصك يا موسى، أنا ورائي أشياء كثيرة ومذكرات أبي، ولكن ما المانع أن أذهب وأرى أهلي وأهل البلد وأفرح معهم، وأنفض عني بعض هذه الغموم والهموم التي أثقلت كاهلي من شغلي ومن مذكرات أبي؟

وأمسك بعلبة السجائر التي على المكتب، ووضعها في جيبه، وارتدي بدلته التي كانت معلقة على ظهر كرسي المكتب.

.....

بدأ الليل يدب على الطريق معممًا أرجاء الكون، وكسا الظلام جو القرية حتى لا تكاد ترى من أمامك، إلا من الأنوار الساطعة اللامعة في نطاق دار العمدة «موسى عبد الشكور» وما حوله احتفالًا بقدوم «أحمد شريف» لزيارته ..

كان الجرن الواسع الذي يفترش أمام دار العمدة مزخرفًا ومزينًا بالزينات والأنوار وأنغام المزامير والطبل البلدي الذي ترقص عليه الخيول، وقد دعا العمدة بعض كبار الناحية كمأمور المركز المقدم «سمير لطفي» ونائب الدائرة في مجلس الشعب «عنتر السيوفي» والحاج «عمار الوليلي» وغيرهم ممن كان في انتظار قدوم «أحمد شريف» ليبدأوا حفلتهم في تناول الوليمة التي دعاهم إليها العمدة .

وعندما بدا أحمد شريف لهم من على بعد أمتار وقف العمدة ومن معه يتلقونه، وقد علت أصوات المزامير وقرع الطبول عندما وقفوا جميعًا.

صافحه العمدة واحتضنه وهو سعيد يردد:

ــ أهلًا أهلًا بابن أخي الغالي معالي أحمد شريف باشا، رافع رأسنا ومعلي مكانة قريتنا، فخرنا وعزنا .

وأحمد غير عابئ به، ولا بمن معه، يهز رأسه وينزع نفسه من حضن العمدة ويقول:

ــ أهلا بك يا عمدة .

والعمدة مبتسم ويبدأ في درب تعريف أحمد بهؤلاء الضيوف الذي يصافحهم أحمد واحدا تلو الآخر عقب تعريف العمدة بكل منهم:

ـ هذا مأمور مركزنا سعادة سمير باشا.
ـ الحاج عنتر السيوفي نائب دائرتنا في مجلس الشعب .
ـ الحاج عمار الوليلي أكبر تاجر غلال وسماد في المركز .
ـ الحاج فاضل ....
ـ الأستاذ ماهر .....
ـ .....

يصافحهم أحمد بابتسامة فاترة وكلمة واحدة مع الجميع:
ـ أهلًا وسهلًا.

وهم في قمة السعادة يرحبون به بألفاظ المدح والثناء التي يمقتها أحمد، وظلوا في سعادتهم واقفين حتى يجلس ثم يجلسون، إلا النائب «عنتر السويفي» الذي ظل واقفا لم يجلس، وبدت ابتسامته تنكشف عن وجهه رويدًا رويدًا، بعدما نظر إليه «أحمد شريف» نظرة لم يفهم معناها وهو يصافحه .

اندهش الجميع من وقوفه، قال أحمد:
ـ لماذا لا تجلس يا سيادة النائب؟

التفت إليه وهو يحاول جاهدًا أن يظهر ابتسامة فاترة ثم يجلس وهو منكمش.

التفوا جميعًا حول «أحمد» إلا النائب عنتر فقد ظل متنحيًا عنهم لا يدري ما معنى هذه النظرة؟

تركهم العمدة وذهب يشرف على تحضير مائدة الطعام، كان أحمد

طيلة الوقت صامتًا يبادلهم حديثهم بابتسامة وهو يدخن سيجارته، قام النائب عنتر وغير مكانه وجلس في كرسي العمدة عن يمين أحمد بعدما فرغ بانصراف العمدة.

جلس فيه وابتسم لأحمد، نظر إليه أحمد ثم قال:

ــ كيف حالك يا سيادة النائب؟

ــ أنا لا أفهم لماذا غضبت علي؟

ــ أنا لم أغضب عليك، ومن أنا كي أغضب على سيادة النائب؟

ــ نظرتك زلزلتني، هل أنا مقصر في شيء؟ هل صدر مني شيء أغضبكم عليّ؟

نفث أحمد دخان سيجارته ثم قال:

ــ التقارير الأخيرة عنك يا سيادة النائب .

شخص بصر النائب، وابتلع ريقه وقال:

ــ ماذا فيها، أقسم بالله لك ...

قاطعه:

ــ لا تقسم بالله كاذبًا، أنت تعرف ونحن نعرف ماذا في تقاريرك الأخيرة.

حاول أن يخفي خوفه وأن يظهر النفاق:

ــ لكني أطمع في كرمكم، نحن أبناء قرية واحدة، وقبل هذا كله بنا نسب وعلاقة قديمة بين جدك محمد الوحيدي، الله يرحمه، وجدي السيوفي.

ابتسم له أحمد ثم قال:

ــ سأرى هذا الأمر يا سيادة النائب ... لا تقلق .

وكان ملتفتًا إليه، ثمَّ أدار وجهه ناحية العمدة الذي يقترب منهم وخلفه رجل كبير السن يبدو عليه الفقر والشقاء من ملابسه القديمة المتسخة بعض الشيء، وخلفهما شاب عشريني مرتديًا قميصًا أبيض وبنطلونًا أسود، وتعلو عينيه نظارة طبية صغيرة.

اندهش أحمد من هذا المنظر ونظر إليهم بترقب وهم يقتربون منه يتقدمهم العمدة.

توقفا الاثنان الرجل والشاب على بعد مترين من أحمد بينما العمدة يتقدم نحوه يهمس في أذنه من بين الحاضرين، يستمع أحمد لهمس العمدة، وهو ينظر لهذا الرجل المسن والشاب خلفه

يهز أحمد رأسه ثم يهمس في أذن العمدة، يتركه العمدة، ويقترب منهما يحدث الرجل المسن ثم يسير ويسيران خلفه، وخلفهم جميعًا يسير أحمد بخطى ثابتة ...

وفي حجرة العمدة الخاصة باستقبال الضيوف كان الرجل المسن والشاب مازال واقفين، بينما أحمد شريف جالس على الكرسي الذي في واجهة الحجرة واضعًا رجله اليمنى على اليسرى، بينما العمدة يغلق باب الحجرة بعدما قال لخفيره الخصوصي:

ــ لا تدع أحد يدخل علينا، قف هنا عند باب الحجرة حتى نخرج

ــ حاضر يا عمدة .

ويغلق العمدة الباب ويلتفت يجد الرجل والشاب مازالا واقفين فيقول لهما:

ــ اجلس يا شلبي، اجلس يا أستاذ عصام .

كان الحزن يخيم على وجه شلبي لا يعرف كيف يتكلم، أما ابنه الأوسط عصام يحدق في أحمد ولا يتكلم هو الآخر .

يندهش أحمد والعمدة فيعيد العمدة كلامه:

ــ ما بك يا شلبي؟ اجلس أنت وابنك لنرى ماذا تريد؟

يعاجل شلبي الحديث ودموعه بدأت تنساب من عينيه:

ــ ابني يا معالي أحمد باشا ابني الكبير «حسن»

يندهش أحمد، وينزل رجله اليمنى من على اليسرى ويقول:

ــ ابنك !

يزعق العمدة فيهما:

ــ اجلس يا شلبي، اجلس يا عصام واتركاني أتكلم مع أحمد باشا .

يجلس شلبي على أقرب كرسي له وعيناه تنهمران بالدموع،ويجلس ابنه على كرسي قصاد أحمد، ويظل يحدج فيه مثبتًا بصره عليه .

ينظر إليهما أحمد ثم ينظر إلى العمدة ويقول:

ــ أنا لا أعرف ماذا يريدان؟

يجلس العمدة على مقربة من أحمد ويقول:

ــ شلبي عنده ابن، ابنه الكبير «حسن» في كلية في مصر أي كلية يا شلبي؟

يعاجله عصام بالكلام:

ــ كلية الطب جامعة الأزهر .

ــ نعم، كلية الطب جامعة الأزهر، قبض عليه منذ ستة شهور، ولا أحد يعلم عنه شيئًا إلى الآن، ولا يعلمون أين مكانه؟ ومن الذي قبض عليه؟

يقول عصام:

ــ رجال أمن الدولة هم الذين قبضوا عليه.

تتسع عينا أحمد وتبرق، وهو ينظر إلى عصام في غضب يلتفت العمدة إلى عصام، ويقول:

ــ اخرس ولا تتكلم، حتَّى نسألك، وترد على السؤال فقط، وإلا تخرج من هنا فورًا، وتترك والدك .

ثم يلتفت العمدة إلى أحمد ملطفًا الجو وهو يبتسم له:

ــ هذا شاب طائش يا أحمد باشا، أرجوك سامحه، لا أحد يعرف من قبض عليه، من الناس من يقول: البوليس هو الذي قبض عليه، ومنهم من يقول ...

وينظر إلى أحمد في صمت، فيقول أحمد:

ــ ومنهم من يقول ماذا يا عمدة؟

يتردد العمدة في الكلام ويفكر قبل أن يتكلم ويقول بصوت مهزوز:

ــ يعني بعض زملائه قالوا لأخيه عصام ووالده إن أمن الدولة قبضوا عليه لكن لا أحد يعلم هل هم من عندكم أم ....

ــ أم ماذا يا عمدة؟ جهاز أمن الدولة جهاز واحد على مستوى الجمهورية بفروعه المتعددة في المحافظات .

ثم يوجه أحمد حديثه لعصام وهو ينظر إليه:

ــ أخوك قبض عليه في أي مكان؟ هنا في القرية أم أين؟

يقوم شلبي مسرعًا على يد أحمد يحاول تقبيلها وهو يقول:

ــ أقبل يدك، أقبل رجلك، أريد أن أعرف أين ابني؟ وماذا فعل كي يقبض عليه؟

وكاد أن يقبلها لولا أن أحمد سحبها، ويوجه العمدة الكلام له:

ــ اجلس يا شلبي دعنا نعرف أين ابنك؟ أحمد باشا ابن أخي، إن شاء الله، سيدلك على مكانه، إنه أكبر رأس في أمن الدولة

يبتسم أحمد ويقول للعمدة:

ــ لست أكبر رأس في أمن الدولة يا عمدة، لا تدعنا نغلط، دعنا في موضوعنا، أين قبض عليه؟

يقول عصام:

ــ قبض عليه من داخل الكلية من المدرج أثناء محاضرة الدكتور «ربيع السيد»

ــ وماذا فعل كي يقبض عليه؟ أكيد هناك سبب

يقول شلبي:

ــ والله، ابني ما فعل شيئًا،نحن ناس في حالنا، فلم يخرج في مظاهرة قط ولم يتكلم في السياسة لا هو ولا أحد من إخوته .

ـــ أمن الدولة خاصة والداخلية كلها عامة يا حاج شلبي لا تقبض على الناس هباءً بدون سبب، ولا تتهم الناس بالباطل .

ثم يصمت ثواني ويقول:

ـــ ما اسمه الرباعي؟

العمدة:

ـــ اسمه حسن شلبي عبد السميع النجار

يميل أحمد بوجهه خفيفًا ناحية اليسار كأنه يفكر في هذا الاسم هل سمعه قبل ذلك أم لا؟ ثم يقول:

ـــ هل معكم صورة له الآن؟

شلبي:

ـــ نعم معنا صورة، نحن عملنا حسابنا وأحضرنا صورته معنا، كما قال لنا العمدة، قم يا عصام أعطه الصورة .

يخرج عصام صورة فوتوغرافية من كتاب صغير كان ملازمًا يده ويعطها له وهو ينظر إليه، يأخذ أحمد الصورة من عصام وهو ينظر إليه، ثم ينظر في الصورة ....

الجميع جالسون ينظرون لأحمد في ترقب وهو ينظر إلى الصورة، دقق أحمد النظر فيها كأنه يعرفه، كان الشاب في الصورة أسمر مرتديًّا بالطو أبيض ونظارة طبية صغيرة الحجم، وابتسامة تظلل شفتيه .

أخذ أحمد وقته في النظر إليها كأنه يعرف هذا الشخص، إنه يعرفه لقد كان واقفًا أمامه هو وعدد من زملائه في مكتب «العقيد أحمد شريف» في

مقر أمن الدولة بالقاهرة ...

كان واقفًا أمام أحمد مع زملائه وأحمد جالس إلى مكتبه ينظر إليهم، وأمامه أوراق تخص بياناتهم، وكان حسن واقفًا وسط زملائه، وعينا أحمد تتردد على وجوههم يمينًا ويسارًا وهو يقول:

ــ من أسامة خالد بيومي؟

يقول شاب:

ــ أنا

ــ أنت من الزقازيق؟

ــ نعم

ينظر إليه أحمد ثم يرفع ورقة من الورق الذي أمامه وفيها صورة صغيرة لأسامة على يمين الورقة من أعلى، ثم يضعها جانبًا ويرفع ورقة أخرى ويقول:

ــ عرفة أحمد المنشاوي

يقول شاب:

ــ أنا

ــ عثمان عوف صقر

ــ أنا

وتستوقفه ورقة من الورقات، ينظر إلى وجوه الواقفين ويقول:

ــ من حسن شلبي عبد السميع النجار؟

ينظر حسن إليه بثبات ويقول في ثقة:

ــ أنا حسن شلبي

ــ أنت من مركز كفر صقر؟

ــ نعم، لكني لست من أهالي المركز نفسه، أنا من قرية فيه

ــ أي قرية؟

ــ حانوت

يهز أحمد رأسه هزًا خفيفًا كأنه كان ينتظر الجواب، ويقف، يمر على الوجوه المترقبة، بعدما انتهى من مناداة جميع الأسماء ثم يقول:

ــ أنتم مدركون ماذا فعلتم؟

يرد حسن:

ــ نحن لم نفعل شيئًا

يلتفت إليه أحمد ويقول:

ــ لماذا أنت الذي تكلم من بينهم، أأنت زعيمهم؟

ــ ليس بيننا زعماء، نحن كلنا شباب إخوة متساوون في حب مصر .

يبتسم أحمد نصف ابتسامة ويقول:

ــ إخوان؟

يرد شاب آخر:

ــ نحن إخوة في الدين ولا ننتمي لأي حزب في الدولة، حزبنا هو مصر كلها .

يضحك أحمد ويقول:

ــ أحسن ما فيكم الشعارات

ثم يعبس ويزمجر قائلًا:

ــ أنت لا تعرفون مقدار مصيبتكم التي أوقعتم أنفسكم فيها، ولا تدركون على ماذا تقدمون؟ ولا تعرفون أين تردون؟ والظاهر أنكم أيضًا لا تعرفون من أنا؟ وماذا سيحل بكم مني؟

يرد حسن:

ــ نحن سمعنا عنك ونعرفك ولا نخاف أحدًا إلا الله

ــ أنت أيضا تبادر بالكلام؟!

ثم يقبض أحمد بيده اليمنى على ذقن حسن رافعًا إياها بقوة وهو يقول:

ــ أنت لم تعرفني بعد، وعندما تعرفني ستتمنى أنك لم تولد.

لقد تذكر أحمد هذا الحوار وهذا الموقف وتذكر هذا الشاب لكنه لم يبد لهم معرفته له، وأظهر أنه لا يعرفه، ثم قال لهم:

ــ سأتصل برجالي في القاهرة يبحثون عنه، وأنا أطمئنكم سنجده إن شاء الله، لا تقلق ياحاج شلبي .

يقول شلبي:

ــ ربنا يبارك لنا في عمرك يا باشا .

يلتفت لهما العمدة ويقول:

ــ أنا قلت لكما إن أحمد باشا ابن أخي هو الذي سيعرف طريق حسن.

ويوجه كلامه لأحمد:

ــ ربنا يحفظك لبلدنا حانوت السباخ ولمحافظة الشرقية، ولمصر كلها يا أحمد باشا.

.....

كان أحمد يعرفه جيدًا، وهذا ما قاله عصام لأبيه شلبي وهما في طريق عودتهما إلى دارهم، بل إن عصام عنده يقين أن أحمد ممن يقومون بالتعذيب في سعيرهم، وأن حسن قد تلظى بنارهم تحت قيادة أحمد .

لم تكن معرفة أحمد بحسن معرفة عادية بل إنه إعجاب من أحمد بحسن، فقد أعجب به وبشجاعته وبثباته أثناء التعذيب، وهذا ما لم يجده في باقي زملائه الذين مع أول جولة تعذيب خارت قواهم واعترفوا اعترافات خطيرة.

أما حسن فقد كان رابط الجأش ثابت العزيمة في حلقات التعذيب التي كانت تحت إشراف «أحمد شريف»

ففي تلك الصالة الواسعة من ذلك المعتقل الذي لا يقطنه إلا أعتى المجرمين على أمن البلاد والعباد، لم يكن أحمد يعتقد أن حسن سيظل سائرًا على الزلط المدبب، والزجاج المكسر المفروش في أرضية الصالة .

فقد خارت قوى زملائه، وتساقطوا الواحد تلو الآخر في أول متر من أرضية الصالة، وقد دميت أقدامهم ونزفت منها الدماء تلون الزجاج المكسر والزلط المدبب باللون الأحمر ..

أما حسن فظل سائرًا، والدماء تقطر من قدميه الحافيتين، وهو بملابسه الداخلية القطنية البيضاء، كان يتمايل ويتراقص على الزلط والزجاج الناعم، وأحمد وزبانيته حوله بسياطهم ينظرون في عجب ودهشة، وهو سائر نحو أحمد الجالس في مقدمة الصالة على كرسي حديد واضعًا قدمه

اليمنى على اليسرى ويدخن سيجارته كعادته ..

وقد ازداد إعجاب أحمد بحسن خاصة عندما وصل إليه، وقد اغرورقت قدماه بالدماء، وعرق العذاب يلطف جسمه ويغسله ويرفع قدره أمام الجالسين والواقفين.

وعندما وصل إليه خر على الأرض أمام قدمي أحمد حيث أنزل اليمنى من على اليسرى، وانحنى يرفعه وحسن ينظر إليه، والعرق يتساقط على خديه ووجنتيه وذقنه .....

ووجد في عيني حسن نظرات عزيمة وإصرار وإيمان بقضية وهوان الدنيا في عينيه .

هز رأسه إعجابًا بشجاعته وبسالته وطلب إلى زبانيته أن يطببوا هؤلاء ويزيلوا دماءهم ويتركوهم يومًا واحدًا ليستريحوا ويستعدوا لحلقات التعذيب القادمة .....

كان ذلك المشهد يتراقص أمام عيني أحمد وهو سائر إلى بيته وخلفه خفيران يوصلانه، بعدما انتهى ذلك الحفل البغيض الذي ندم على حضوره، حيث جعله يتذكر قسوته وبشاعته أمام نفسه التي تؤزه دائمًا على الشر ...

وجد نفسه في مكتب والده ناظرًا إلى مذكَّراته التي تركها أكثر من ساعتين وأخيرًا عاد إليها يستكمل رحلة والده وتجاربه السوداء كتجاربه وحياته.

لكن التعب كان قد حل عليه مع الظلام وحان وقت النوم، فوضع

المذكَّرات في حقيبة يده الجلد السوداء الصغيرة، وصعد بها إلى الطابق الثاني حيث حجرة نومه القديمة التِّي كان ينام فيها وهو صغير، لم ينتبه إلى الحجرة، وما فيها وألقى بالحقيبة وبجسده على السرير دون أن يعبأ بالغبار والأتربة التي ملأت جو الحجرة بمجرد خروره على السرير، فمنذ زمن والحجرة والبيت كله لم ينظف أو يرتب أو يهيأ للمعيشة، حتَّى إنه رفض أن ينظف من قبل خدم العمدة حتى لا يضيع شيء مما يبحث عنه. كان يريد الفيلا كما هي منذ آخر زيارة له دون أي تغيير، وهذا جعل العمدة يندهش من هذا الأمر، ومع إصرار أحمد ورغبته في هذا الأمر استسلم العمدة لتلك الرغبة ... وظلت الفيلا كما هي مفعمة بالأغبرة والأتربة في كل ركن فيها، وهذا ما وجده أحمد، ولم يعبأ بذلك حتَّى إنَّه غرق في نومه رغم كل هذه القذارة والوساخة ...

أخذه النوم في لجته كالبحر العميق وسبخ فيه بكل قواه، وسبحت روحه تأتي إليه بالكوابيس والأحلام المزعجة التي تغشاه وتراوده في نومه، لذلك هو يكره النوم، ولكن من منا لا ينام؟ فالتعب والإجهاد يجبران الإنسان على النوم مهما طالت مدة صحيانه .....

هو نفسه ذلك الكابوس الذي يراوده في نومه منذ أن جاءه منذ ما يقرب من عشر سنوات، وهو ينهشه بمخالبه عندما ينام في أي ساعة من ليل أو نهار ...

كان يحس إحساسًا يصل به إلى اليقين،أنَّه سيموت هذه الميتة التي كان يراها في أحلامه، ولكن من الذي سيفعل ذلك؟ لا يعرف.

لأن الوجوه التي كانت تحرقه في المنام كانت وجوها سوداء غير معلومة بالنسبة له في يد كل واحد منهم شعلة نار، كان يدقق النظر في وجوههم لعله يعرف أحدًا لكنه لم يعرف، ومع هذا لم ينتابه الخوف بل كان صامتًا لا يصرخ ولا ينعر ولا حتى يقول: ارحموني.

فقد أوثقوه بالحبال من قدميه ورجليه بين شجرتين بينهما قش وأعواد وقطع من الخشب الكثيرة مبعثرة أسفل قدميه، حيث يتقدم أحدهم نحوه وفي يده الشعلة ويقول له:

ــ قل: لا إله إلا الله

وهو ينظر إليه في صمت لا يتكلم ولا يعبر عن أي ألم أو هلع، يلتفت هذا الشخص الأسود إلى باقي زملائه ويهز لهم رأسه فيتقدمون نحوه، وكلهم على قلب رجل واحد في وقت واحد أجمعون يرمون شعلهم على ذلك القش، وتلك الأعواد والأخشاب فتستعر النار جحيمًا تمسك في قدميه، وتزحف على باقي جسمه، وهو ينظر لا يصرخ ولا يعبر عن أي ألم أو فزع أو رعب، النار أمسكت به تأكله وتتغذى عليه، حتى وصلت إلى وسطه، وهو ينظر إليهم في هدوء كأنَّه يريد هذه النهاية، وانقضت النار على وجهه تأكل فيه، صار كتلة شديدة من النار من كل جهة حتى تفحم.

هبّ من نومه فزعًا هلوعًا، لم يستطع أن يبتلع ريقه، جلس على حافة السرير، وأنزل قدميه وهو ينهج يزفر ويشهق نفس داخل ونفس خارج ...

ينظر حوله فلا يجد شيئًا يقول بصوت متقطع متهدج:

ـــ إلى متى سيظل يتبعني هذا الكابوس؟ إلى متي سيظل يخنقني؟ أريد أن ينتهي ....

وسمع صوت جرس باب الفيلا فلم يكمل كلامه، كان كلما يقترب من الجرس الصوت يعلو، فتح الباب فوجد أمامه الخفير «علام» وخلفه «سوسن» خادمة العمدة، وهي تحمل فوق رأسها صنية مملؤة بالطعام والشراب من البيض والجبن والقشدة والعسل الأبيض والفطير واللبن الطازج .

يفتح عينيه فيهما كأنَّه الغبش يبادره علام بالكلام:

ـــ العمدة يصبح عليك، ويقول تناول فطورك بالهناء والشفاء، ادخلي يا سوسن، ضعي الصينة على السفرة بالداخل .

تدخل سوسن وهي تحمل الصينة فوق رأسها وهي تنظر إلى أحمد وهو ينظر إليها، وإلى خصرها الرشيق الفائر من الجلباب الفلاحي المزين بالورود .

تضع الطعام وتخرج مسرعة، يقول علام:

ـــ هل تريد شيئًا آخر يا سيادة أحمد باشا؟

ـــ بلغ شكري للعمدة .

ـــ إن شاء الله، العمدة يقول لك،ماذا تريد أن تأكل على الغداء؟

ـــ الغداء أيضا، لكن هذا كثير.

ـــ العمدة يقول نحن كلنا في خدمتك.

ـــ شكرا لك وللعمدة، قل له سآكل مما تأكلون منه .

تنظر سوسن إلى أحمد وتقول:

ــ هل تريد شيئا مني يا سيدي أحمد باشا؟

ينظر إليها أحمد، وقد انشقت شفتاه عن ابتسامة لطيفة تحمل الخبث والفحش ثم يقول:

ــ شكرا يا سوسن، إذا أردت شيئًا سأقول لك.

يقول علام:

ــ نستأذن نحن يا سيادة معالي أحمد باشا.

ــ مع السلامة، مع السلامة ياسوسن

يقولها وهو يبتسم لها، فما كان منها إلا أن تبتسم هي الأخرى، وهي تنظر إليه، وتدير وجهها يمينًا من الخجل.

يغلق الباب ويجلس ينظر إلى الطعام الشهي الساخن، يرفع كوب اللبن يشربه على مرة واحدة ثم يقول لنفسه:

ــ لا أريد أن تطول إقامتي هنا، لا أريد أن أقع أكثر في الفحشاء، أريد أن أرحل من هنا سريعًا، فلابد أن أنهي قراءة هذه المذكَّرات اليوم، وغدًا إن شاء الله أرحل من هنا دون أن أقول لأحد ؛ كي لا تزيد طلباتهم مني.

فانثنى مجتهدًا يكمل قراءة تلك المذكَّرات الملعونة، ولكن هذه المرة في حجرته في الطابق الثاني، وهو جالس على سريره مادًا رجليه أمامه وخلف ظهره مسند يقيم ظهره ليعتدل في الجلسة.

وعاد إلى حيث وقف أبوه من الحديث في مذكَّراته:

«كيف أخرج لهم ليستهزئوا بي ويقذفون بسخرياتهم اللاذعة؟ كيف

أقابل زملائي في السوربون؟

ولكن طال المقام بي في تلك الحجرة التي أقطنها في ذلك الفندق. ومرت شهور الصيف، وأنا في الحجرة لا أخرج إلا لتناول الطعام ثم أعود سريعًا لحجرتي أقضي وقتي في قراءة الجرائد والمجلات..

مر الوقت سريعًا، وأنا لا أتوقف عن التفكير في مصيري، وهل سأظل هنا حبيس هذه الحجرة، حتى أتعفن فيها؟ لا، لم أعد قادرًا على حل نفسي وصربها في الحجرة صامتًا مهمومًا مغمومًا حزينًا نابذًا للعالم وأهله...

فاستجمعت أشلائي المهثوثة، وخرجت لأتابع دراستي في السوربون، وكان السوربون غير السوربون؛ وجوه جديدة وغربية، أكثرها من خارج فرنسا جنسيات عربية،وأوروبية،وأفريقية، مختلفة أكثر ما يميزها، هو ذلك الكلوح والبرود الذي ينشط في بعضهم خاصة من اليهود الذين كانوا يتكاثرون في فرنسا، وخاصة في باريس وخاصة في السوربون .

كثير من الوجوه منهم كانت تتبعني في الذهاب والإياب، بعدما عرفوا أنِّي مصري، كانوا يترقبوني، بعضهم يحاول تحاشي وبعضهم حاول الصدام معي إلا أني وقفت في وجهه، وأبلغت عنه إدارة الجامعة الذين بدورهم أنذروهم بالفصل إذا تكرر ذلك.

والبعض الآخر حاول التقرب مني لا أعرف السبب، ربما لمعرفة شخصيتي أو معرفة شعوري تجاه وطني، أو محاولة إظهار المودة والسلام ونبذ العنف، أو ربما لمحاولة تجنيدي جاسوسًا تابعًا للموساد، وهذا هو الاحتمال الأقوى .

ولكني كنت أصدَّ الجميع، لكني زهقت ومللت من كل هذه المحاولات حتَّى تمنيت أن تنتهي الدراسة بسرعة في هذه الجامعة الملعونة.

وكأن الأيام تعاندني، فلا تسير ولا تتحرك، ولكني كنت أمني نفسي بالصبر، ولا أعرف كيف فاتت أشهر عديدة؟،حتى جاء مايو سنة 1968 ذلك الشهر الذي شهد ثورة لا تقل في نظري عن الثورة الفرنسية واقتحام سجن الباستيل سنة 1789.

حيث انطلقت مظاهرات عارمة في باريس، كان لابد أن أخرج فيها، ولم يكن خروجي هذه المرة في مظاهرة تنادي بمقاتلة المسلمين؛ لأنَّهم كانوا قد قتلوا الكثير منهم في بلدي، وإنما كان خروجي في ثورة عارمة في جامعة السوربون قادها طلبة كلية الآداب معقل الفكر والآداب ....

واتسعت لتشمل طلبة باقي الكليات، وظلت تتسع حتى وثبت فوق أسوار الجامعة واحتضنت ثورة العمال وأصحاب الحرف الصغيرة، والعاملين في الحكومة والمؤسسات العامة ...

ووجهت الثورة التِّي نبعت من روح الشباب ضد كل سلطة فوقية بل رافضة لأية سلطة، مهاجمة لكل نظام سائد، منادية بهز البنيان الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي من جذوره في سبيل بنيان جديد في كل شيء.

وتوقعت أن ينحر بعضهم بعضًا كما فعلت الثورة الفرنسية الأولى وكما فعلوا في بلادنا.

ففرحت من داخلي، وتهيأت للشماتة فيهم كما شمتوا فينا، فسرت في مظاهرات الثورة مناديًا بما ينادون به ...

وحضرت إحدى مناقشات الطلبة الضخمة المفتوحة التي حضرها العمال، والعجائز،والشيوخ، وربات البيوت، والأجانب والنواب، والكُتَّاب، والصحفيون، وبلغ عدد الحاضرين حوالي خمسة وثلاثين ألفًا..

وشملت المناقشة كل شيء، ناقشوا فيها كثيرًا من الموضوعات، ناقشوا طبيعة العمل الثوري، وتحديد النسل وشكل الحكومة الأمثل، وكيف يمكن التغلب على سلطة الدولة ممثلة في البوليس؟ وتناقشوا في موضوع أهمني أنا شخصيًّا وهو حرية ممارسة الحب والجنس ...

كما تكلموا عن الحرب في فيتنام، والزواج والطلاق، ودور الجامعات في إعداد الشباب للحياة في مجتمع حي يتطور ويتغير دائمًا أبدا متجدد مع الحياة ومتطلباتها ..

ورغم أني اشتركت في بعض مظاهرات الثورة، وحضرت أهم مناقشاتها بنية سيئة خبيثة تجاه ذلك الشعب، وبرغبة دامية بتوقعي حدوث حرب داخلية بين طوائف الشعب الفرنسي وحكومته إلا أني آمنت بموضوعات المناقشة الخيرة، التي تضمنت أهم مطالبهم، وتمنيت حدوث ثورة مثل هذه الثورة في بلدي تصحح الأوضاع، وتهز كيان الحكومة وتقض مضاجعها وتقلق حكامها، حتَّى ولو لم تسفر عن شيء كثورة طلبة فرنسا هذه.

ولو لم تكن ثمرتها إلا هزها العالم بدعوتها إلى التغيير والإصلاح وقولها للفساد والظلم: لا، لكفاها شرفًا ومجدًا ...

كان حقًا كثير من مبادئ الثورة نبيل وأصيل مما لا يختلف عليه اثنان

في العالم .... كحديثهم عن مشكلة الجوع في العالم، حيث قال أحد زعماء الطلبة في السوربون: إن اليمين واليسار مسؤولون عن أن مليارين من سكان العالم يموتون جوعًا بينما يعيش مليار في رغد معربد ..

لم تكن ثورة الطلبة ثورة محلية أو قومية، إنما كانت صورة عالمية، دعت إلى تحرير العالم كله من براثن الاستعمار والاستغلال بكل أشكاله.

رأيت ذلك من خلال شعارات الثورة وصورها ونشراتها وملصقاتها، التي تطوع طلبة الفنون الجميلة لرسمها.

وتطوع الشباب من الزوجين في إلصاقها على الجدران وفي قاعات السوربون، وعلى جدران مسرح «الأوديون» العتيد على الضفة الأخرى من طريق «سان ميشيل».

وقد اكتسى المسرح الصغير ثوب الشباب الأحمر الثائر، وعلت فيه الهتافات متحدية الإلقاء المسرحي الرصين لكلاسيكيات المسرح القديم التي ظلت أكثر من قرنين تدوي في جنباته ...

وقفت أتأمل تلك الشعارات والصور التي ملأت شوارع باريس، ولم تستوقفني إلا صورة واحدة جذبتني إليها، وجعلتني أتأملها مفكرًا في المضامين والمعاني المتوارية خلفها ....

كانت صورة الثائر الدولي «تشي جيفارا» الذي فتن الشباب برسالته العامة العالمية، التّي دعت إلى تحرير العالم كله من بين مخالب الاستعمار والاستغلال بكل أشكاله وصوره ..

كان «جيفارا» أبرز من رفع الشباب صوره وهتفوا باسمه هو

والدكتور «فيدل كاستروا»، والذي تحدى أعظم قوة في العالم، ووقف في وجهها صامدًا هو وشعبه الضعيف، الذي التف حوله يسانده ويعاضده في وجه أمريكا الغاشمة ...

وكان هناك تشابه كبير بين شعب كوبا الضعيف، وشباب فرنسا الثائر الضعيف والذي رغم ضعفه تحدى وثار على السلطة، وعلى الأحزاب، وعلى التقاليد البالية دون خوف أو تردد أو جبن أو رجوع ...

تمنيت كثيرا أن تحدث ثورة مثل هذه في مصر، وما أكثر التمني؟!

ثورة مثل هذه أمامها دهر طويل، لكي تحدث في مصرأو في الوطن العربي كله...

وككل ثورة سجلت في هذه الثورة أعمال شغب وعنف، وسفكت دماء كثيرة وحدث كثير من التخريب والدمار رأيته بأم عيني.

وبعد ثمانية أسابيع من الاضطرابات، راحت فرنسا تلتقط أنفاسها،وانتهت ثورة مايو 1968 كما تنتهي كل الثورات، وخلّفت وراءها الخيبة والحسرة.

ورغم فشل تلك الثورة إلا أنها ستظل باقية في الأذهان، مذكرة لهم بالثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر .

وعلى كل هي محاولة للتغيير وليتنا نتخذها، ولكن هيهات هيهات،ما أبعد الأماني؟!

ورغم فشل هذه الثورة إلا أنها لم تفشل داخليًا، فقد كانت سببًا في إعادتي إلى الطريق الصحيح، وليس البديل، فقد صوبت طريقي،

وجعلتني أعود مرة أخرى لدراسة الطب ولكن هذه المرة في كمبردج .

فقد جعلتني أفكر في مستقبلي مرة أخرى، وأن أعيد حساباتي وأرجع لدراسة لا أعرف سواها ولا أتقن غيرها وهي دراسة الطب النفسي، والاشتغال في الماجيستر مرة أخرى بدلًا من الابتداء من جديد في دراسة الآداب، التي دخلتها في هفوة من غياب عقلي وجري وراء المتعة واللهو والهلس.

فقد كانت تلك الثورة القائد والدافع، الذي دفعني برفق لتعديل مساري واستكمال دراساتي العليا، التِّي تعثرت والتي من أجلها جئت إلى أوروبا، كي أصبح أعلى من أخي، الذي فاز عليّ وعلاني بدرجات عظمى، عندما عين سفيرًا لمصر هنا في إحدى دول أوروبا المشهورة ..

هالني الغضب، وكاد الحسد يقتلني، عندما رأيت صورته في صحيفة «النيوستيسمان» وصحيفة « أنباء العالم الإنجليزية» كدت أخنق نفسي، ولكني تراجعت وصممت على خوض المعركة للنهاية ..

فدفعت بعنف مرة أخرى إلى كمبردج، رغم صعوبة دخولي إليها مرة ثانية بعد تركي لها، ولكني بالمال دخلت بعدما أغدقت أموالا كثيرة على بعض أعضاء هيئة التدريس، والهيئة الإدارية في الكلية، وخاصة عميد الكلية ونائبه .

دفعت إليها مرة أخرى عن رغبة وباعث، ولكن هذه المرة غير الفائتة فقد كانت عزيمتي تعلو السحاب.

كثفت جهودي وبات همي وشغلي هو الحصول على الماجستير، ثم

الدكتوراه ثم العمل في الجامعة إن تيسر وفتح عيادة نفسية كان حلمًا أخذت عهدًا على نفسي أن أحققه...

وكان لابد أن أهزم الشهوة، كي أسير في مشواري سريعًا، وكان لهزيمته علي أن أتسلح بسلاح يخففها كان هذا السلاح هو الزواج.

فقد تعرفت على فتاة إنجليزية تدعى «إيفان» تدرس في الجامعة في نفس تخصصي، ارتحت إليها وعانق قلبي قلبها وتحولت صداقتنا لحب رعاف، فلم أتردد لحظة واحدة من طلب الزواج بها وعلى الفور وافقت، وعشت معها أجمل أيام، جعلتني أنسى نفسي في أول أسبوع زواج، أمتعتني بكل أنواع المتع تلذذنا ببعضنا، وانتشينا عطر الزواج معًا.

وصارت رفيقتي في البيت، وفي الجامعة ووقفت بجواري كأي امرأة عاقلة تقف بجوار زوجها أو أعظم، وحثتني على العمل الدؤوب في رسالتي، حتَّى تحقق ربع حلمي بحصولي على الماجستير في الشذوذ.

لم أضيع الوقت في تلك السنوات التي أردت أن تنصرم سريعًا، وأرجع إلى طبيعتي، فخضت معركة شرسة مع الدكتوراه، جفيت فيها الكرى، وعانقت السهر وسامرته، حتَّى أنهكت قواي ووهنت عظامي، ومع ذلك لم أقف أو أمل بل زدت حماسًا بسماعي خبر الضربة الجوية المصرية الموجهة إلى إسرائيل ذلك العدو اللدود لنا، وعبور مشاتنا سيناء، وقصل خط باريف وعبور قناة السويس ..

اهتززت طربًا بذلك العبور الذي هزّ العالم وجعله ينصت لنا من جديد، وتهتك عن وجهي ستار الذَّل والعار، وأخذت زوجتي وطرنا

إلى باريس ذلك البلد الذي شعرت فيه بعار الهزيمة وبيأس الفرار، عندما سرت في طرقاته منحنيًا رأسي من الذل والعار من الفضيحة التي كانت تلوح في وجهي، عندما أرى نظرات الاستهزاء والسخرية والشماتة من الآخرين .

وسرت مع زوجتي «إيفان» وكأني مولود من جديد على ضفاف نهر السين، وفي سان ميشيل وسان جرمان وشوارع باريس رافعًا رأسي مخرجًا لساني في عقلي لوجوه الفرنسيين الكالحة، الذين تظاهروا قبل ذلك من أجل مقاتلة المسلمين.

وها نحن جيشنا العظيم وشعبنا الصامد قد رددنا الصفعة وإن كانت ضعيفة، وردت إلينا كرامتنا من جديد وأثبتنا وجودنا الحقيقي، وموقعنا المكين في العالم الذي صار ينصت لنا ...

كانت دفعة قوية ألهبت حماسي مرة أخرى، وخاصة عندما رجعت إلى كمبردج مرة أخرى راحلًا عن باريس بعدما أظهرت فيها عزتي وكرامتي ونصرنا العظيم .

كانت دفعة أشعلت عزيمتي وإصراري وزادته توقدًا في سبيل إثبات وجودي أمام أخي وأمام الآخرين ..

نسيت كل شيء من أجله، نسيت زوجتي في مصر، ونسيت ابنيَّ أحمد، الذي لم أره إلا من صورته وهو رضيع، نسيت ابنيَّ الآخرين نبيل وعادل، نسيت وطني نسيت كل شيء من أجل هدفي وحلمي ...

والآن بعدما تحقق حلمي كاملًا بحصولي على الدكتوراه بعد مرور

هذه السنوات العجاف، كان لابد أن ترتسم خطاي على أرض الواقع، فأقمت عيادتي النفسية الخاصة هنا في لندن .. فلم أشأ أن أستقر في وطني خاصة بعدما انضممت لأعضاء هيئة التدريس في كمبردج تحت التمرين بأجر ضئيل، فصاخت سعادتي وشعرت أني أملكها وأحسست أن هذا وطني، بعدما لفظت ولفظني وطني الذي كنت أشعر فيه بالغربة والعزلة، فأثرت مكوثي واستقراري في لندن التي صارت وطنا لي بعيادتي وزوجتي وابني الذي تدعيه أنه ابني مع أني غير متأكد من ذلك، وكأني أعاقب بأن تسببت في نسب نسلي إلى غيري فنسب من ليس من صلبي إليّ ....

كل هذا لا يفرق معي خاصة وهذا يحدث كثيرا في تقاليدهم وعاداتهم، أهم شيء أن حلمي تحقق أخيرًا وآن لي أن أزور مصر لرؤية ابني وزوجتي، وكي أعود بهما مرة أخرى إلى لندن، بعدما وافقت إيفان على هذا الأمر وأن يعيشوا جميعًا معًا .

كنت ومازلتُ أشتهي زوجتي «إخلاص» التي لم ألتقِ بها منذ زمن لقد نسيت قبلتها وطعمها، ونسيت المواضع البارزة من جسدها،والتي تضج بالأنوثة والإغراء آن لي الآن أن أتذكر كل ذلك،فللمصرية طعم آخر غير الأجنبية طعم غجري كرائحة الورد البلدي بين الزهور.

تهيأت للقائها وأحضرت معي تهيئتها لي ببعض قمصان النوم الساخنة، وبعض العطور المثيرة،وبعض ملابس السهرات المثيرة التي سافرت إلى باريس من أجل شرائها.

ولم أنس أحمد فقد اشتريت له بعض الملابس الجميلة والغالية وبعض

الألعاب المسلية.

ووضعتها مع مذكَّراتي التي قد كتبت منها حوالي عشرين صفحة في حقيبة جلد سوداء متوسطة الحجم.

وتقدمت للرحيل إلى مصر بعد غيابي تسع سنوات عنها متخيلًا الأحضان الدافئة والقبلات الحارة والاشتياق الملتهب من إخلاص، ولكني صدمت ودهشت بفتورها الشديد وبردوها المسحل ونبرة صوتها الحادة:

ــ ما الذي أتى بك بعد هذا الغياب الطويل؟

ــ اشتياقي الغامر لكِ ولأحمد ..... أين هو؟

ــ أحمد من؟

ــ أحمد من؟! أحمد ابني ... يا أحمد ... يا أحمد

وخرج طفل صغير من حجرته ضئيل الحجم أراه لا يتجاوز الخمس سنوات، وبوجه لا يشبهني تمامًا وملامح ليست ملامحي ولا ملامح أمه، شديد الاسمرار، كنت مبتسمًا، وعندما رأيته ذهلت وأسكت كأني صرعت، نظرت إليها في دهشة، ثم قلت:

ــ من هذا؟

أجابت مندهشة:

ــ من هذا؟! هذا أحمد ابنك .

فصاح الولد:

ــ هذا أبي ... أبي ... أبي

وطفر نحوي يحتضن رجلاي ملصقًا رأسه بهما وهو يقول:

ــ أين كنت يا أبي؟ لقد سألت عنك كثيرًا .. وكانت أمي تقول لي دائما أنك مسافر، لقد أحببتك كثيرًا يا أبي، عندما أرتني أمي صورتك وتمنيت رؤيتك كثيرًا.

نظرت إليه في غضب وقلت:

ــ ما عمرك يا ولد؟

ــ أنا لا أعرف عمري، ولكني في الصف الثاني الابتدائي ثاني أول.

صعقت وقلت:

ــ ماذا؟ الصف الثاني إذن عمرك سبع سنوات.

صاحت قائلة:

ــ لا ....، عمره ثماني سنوات ، وهو ابنك فلا تدع الوساوس تقذفك إلى ظلمات الانحراف والضلال.

ــ كيف هو في السنة الثانية وعمره ثماني سنوات؟ ! لو كان عمره ثماني سنوات لكان في السنة الثالثة .

ــ لقد دخل المدرسة متأخرًا سنة.

ــ لكن ... كيف ذلك؟

ــ كيف ذلك ؟! ماذا تقصد يا معتوه ؟ أنت تعرف أني نزلت من لندن وأنا حامل، والدكتور أكد لنا ذلك، وأنا أرسلت لك صورته بعدما ولد

نظرت إليها في غبش وقلت في تلجلج:

ــ قد يكون مات الجنين، وقد تكون الصورة ليست له وأرسلت لي أي

صورة .

اشتاط وجهها نارًا مما سمعت وقالت:

ــ بلغت بك الوقاحة والسفالة والانحدار أن تتهمني في شرفي؟!

أشاح بوجهه عنها ثم التفت إليها قائلًا:

ــ أريني شهادة ميلاده .

صاحت مذهولة:

ــ ماذا؟! أنت قذر فعلًا

ــ أنا أريد أن أتيقن

هزت رأسها، ودخلت تهرول إلى إحدى الحجرات، وخرجت ومعها شهادة ميلاده وأعطتني إياها ثم قالت لولدها:

ــ ادخل يا أحمد حجرتك الآن .

وقرأت الشهادة وكان ما قالت:عمره ثماني سنوات مواليد مايو 1966

ولكن داخلني شك واختلجني هم وخنقتني وساوس إبليس ... وأحسست أنه ليس ابني رغم الحجج والبراهين التِّي أرتني إياها، ورغم لون عينيه الذي يشبه لون عيني هذا فقط المشترك بيني وبينه في الملامح، أما باقي ملامحه وتضاريس وجهه وجسمه ليست لي ولا لأبي أو لأخي، فمن يكون أباه الحقيقي الذي ورث عنه هذه الملامح؟

وتركها أحمد ترك مذكرات والده كعادته عند كل صاعقة ... وانتصب غاضبًا من على السرير حانقًا مذهولًا يقذف كل ما يصادفه على الأرض ثم صرخ:

ـــ إذن ... من أبي؟ لا .... لا .... إنه أبي، إن ذلك الفاسق الفاجر أبي، ولكن ....

ولكن لماذا؟ لقد أحس أني لست ابنه، وهل أمي الدكتورة إخلاص خانت أبي مع رجل غيره؟

هل أمي ....

ثم برقت عيناه كأنه تذكَّر شيئًا من أمد بعيد عندما كان في الصف الثالث الابتدائي بعد زيارة والده المفاجئة لهما بسنة تقريبًا، وكان قد أحس بتعب في الحصة الثانية مغص شديد يقطع بطنه، فقدمت له المدرسة بعض الإسعافات المؤقتة من دواء شراب،ثمَّ أخرجته تحت إشراف سائق الباص ليوصله إلى شقته، ودع السائق أمام باب العمارة وتركه السائق مع البواب يوصله لأمه:

ـــ أمامي يا أستاذ أحمد، كي أوصلك إلى الشقة، فقد أوصلت منذ قليل مدام إلهام صديقة والدتك بالطعام والشراب .

ـــ من إلهام؟ !

ـــ ألا تعرفها؟ تلك الدكتورة زميلة والدتك في الجامعة، والتي تسكن في الشارع الخلفي .

ـــ أه أه عرفتها، لكني سأصعد بمفردي ياعم متولي.

ـــ انتظر أوصلك فأنت مريض.

ـــ لا أريدك توصلني أنا لست صغيرًا أنا رجل سأذهب بمفردي.

ـــ على راحتك.

وتركه وامتطى الأسانسير، وفي الدور الرابع الشقة رقم 7 أخرج المفتاح كعادته وأداره في ثقبه المعتاد ودخل والجو هادئ، وضع حقيبته على كرسي في وسط الصالة، ونظر حوله فلم يجد أحدًا ترى أين أمي؟ نظر يمينًا ويسارًا، وإذا به يسمع همسات وأصوات اعتادها عندما يمص المصاصة تصدر من حجرة والدته، اقترب نحوها في براءة، والأصوات تزداد كلما اقترب وزاد معها تأوهات:

ـــ آه آه...

وازداد المص، وكان الباب نصف مغلق، فلم يكلف عناء دفع الباب لرؤية ما يحدث بالداخل.

وهاله ما رأى، وليته ما رأى، ما هذا؟

رأى منظرًا، قد لا ينساه حتى مماته، أمه وإلهام عاريتان تمامًا كيوم ولدتهما أمهما، وشفاههما ملتصقتان ملتحمتان تلاحم أطباق الثرى، وأمه نائمة وفوقها إلهام التي باتت تنجرف نحو الأسفل،رويدًا رويدًا تمص رقبة إخلاص في شبق، وتفرك حلمتيها البنيتين بشفتيها في صراخ من كليهما، وأخذت تنجرف وتنجرف حتى قعدت برأسها بين فخذيها ملتهمة فرجها النظيف المربرب الشرقان، وأخذت تدخل لسانها فيه شادَّة بظرها بشفتيها، والأخرى تتأوه وتتلوى يمينًا ويسارًا.

وقف مذهولًا، مما رأى يتصبب العرق من جبينه بعينين مفتوحتين على وسعهما.

ما هذا؟ قد لا يفهم ما رأى أو ربما فهم ؛ لأنه كان في عمر التاسعة ما

هذا الذي يراه، لماذا تفعلان هكذا؟

أخذ يتراجع إلى الخلف دون أن يشعرا به، وأنى لهما الشعور وهما في مثل هذه الحالة من النشوة والشهوة المجنونة، فقد كانتا غائبتين عن كل ما حولهما كانتا في عالم آخر.

لم يدرِ ماذا يفعل؟ هل يدخل عليهما ويفرق عنهما هذا الجحيم الذي يراه؟ جلس في الصالون مذهولًا، راعه وفصمه ما رأى هل هذا حقيقي أم خيال؟ قام واقفًا ودخل حجرته على أطراف أصابعه، وألقى بجسده على السرير ...

وتظاهر بالنوم العميق، حتى ينتهي ذلك الالتصاق والالتحام الذي رآه.

وانتهت جلسة السحاق الشهية بين إخلاص وإلهام وقد هالهما وجود تلك الشنطة على الكرسي، اندهشتا وخاصة إخلاص التي نظرت إلى إلهام باستغراب واستفهام وكانت كل واحدة منهما مرتدية روبًا شفافًا

بادرت إخلاص:

هذه شنطة ابني أحمد.

وجحظت عيناها:

ـــ هل رأى .....؟

قالت لها إلهام مطمئنة لها:

ـــ لا، أكيد لم يرَ شيئًا ربما نسي شنطته في الصباح قبل الذهاب للمدرسة.

ـــ لا، أخذ شنطته

وازدادت دهشتهما وفارَ خوفهما لما رأيتا أحمد نائمًا في سريره يغط في نومه.

تنفست إلهام الراحة وقالت:

ــ الحمد لله، لم يرَ شيئًا، ربما أتى متعبًا فدخل مسرعًا على حجرته ونام .

تساءلت إخلاص في حيرة:

ــ ولكن ما الذي أتى به قبل ميعاد المدرسة؟

ــ ربما تعب أو شيء من هذا .

ــ أنا غير مطمئنة، سأوقظه .

ــ كيف ستوقظينه بثيابك هذه؟

ــ معكِ حق، سأذهب أرتدي ملابسي، وأنتِ ارحلي من هنا قبل أن يستيقظ.

ــ أنا سأذهب من هنا مباشرة على الجامعة قبل أن يشعر زوجي الدكتور « عمار» أني تأخرت عن الجامعة، مع السلامة

وارتحلت والأخرى ارتدت بلوزة بيضاء وجيبة جلد سوداء يعلوهما معطف أنيق، ودخلت توقظ أحمد متظاهرة بالبراءة متسائلة عن سبب رجوعه مبكرًا قبل موعد انتهاء حصص اليوم الدراسي؟

تظاهر أحمد بالاستيقاظ، وهو يفرك عينيه ويقول بصوت النائم:

ــ اتركيني يا أمي إني تعبان.

ــ لماذا أتيت مبكرًا؟ قم كلمني

وجلس أحمد على السرير ورجلاه ممتدتان، وظهره متكئًا إلى مخدة

النوم،ونظر إليها وقال:

ــ لقد أصابني مغص شديد، فرأت المدرسة أن ترسلني إلى البيت

نظرت إليه متصفحة، لعلها ترى نظرة ريبةٍ أو شكٍ أو ازدراء أو استفهام في عينيه وأسفت النظر إليهما.

وهو يحدق فيها لا تطرف عيناه، فما كان منها إلا أن أسجدت ببصرها إلى ملاءة السرير ووقفت وهي تقول:

ــ سأذهب إلى الجامعة الآن، وعندما أعود سنذهب سويًا إلى الدكتور.

وخرجت وهي غير متفهمة معنى نظراته كأنها ترى فيهما الشك والعتاب من ناحيته، ارتابت وغص الشك حلقها، وظلت حائرة ساهمة، حتى وهي تقود سيارتها وكأنها غير مبالية بما حولها غير نظرات ابنها إليها، وقد أصاب أركانها حالة من الشلل إلا تفكيرها وظلت تحدث نفسها:

ــ أنا لست مطمئنة، نظراته توحي بشيء، كان يجب أن يحدث هذا بعيدًا عن الشقة، استطردنا في حصوله في الشقة، قد كبر أحمد ولم نشعر بذلك، وأصبح يفهم ما حوله، قديمًا كان صغيرًا ينام لا يعي بشيء مما يحدث حوله، أما الآن عمره تسع سنوات هذا مع ذكائه الحاد، يجب ألا يحدث هذا مرة أخرى في هذه الشقة اللعينة، لطالما طلبت مني إلهام ومنى وغادة أن نستأجر شقة أخرى بعيدة عن الأعين، وأنا التي كنت رافضة لذلك من أجل أحمد، لكن الآن أظنها فكرة صائبة، وليكن ما يكن.

هزَّ أحمد رأسه، وهو ينظر عبر شرفة حجرته إلى حديقة الفيلا، وكأنه يرمي من رأسه كابوسًا ويترنح وهو يقول:

ــ يالك فعلًا من أم عاهرة، كيف نسيت ذلك؟ كيف نسيت هذا المشهد الذي لا ينسى، يالك من عاهرة فاجرة سحاقية شاذة ربما تكونين فعلًا زنيت، وكنت ولد زنا كما شك فيك أبي، لقد عرفت الآن سبب رفضك السفر معه إلى لندن، تريدين أن تظلي بجوار عشيقاتك العاهرات أمثالك لاحساتك وعاصراتك، لقد عرفت مع من تمارسين السحاق والشذوذ، ربما هناك الكثيرات غير إلهام الفاجرة، لكن من هو الذي زنى بكِ وأنجبتني منه؟ من؟

لقد شتت فكري فإذا لم أكن ابنه فأنا ابن من إذن؟ ابن من؟

وصرخ حتى انقض على الأرض كالجدار البالي، ثم رفع رأسه من على الأرض وهو يضحك بسخرية ويقول:

ــ كما تدين تدان؟ اثنان ينسبان إليك وأنت تشك أنهما ليسا من صلبك: آدم ابن إيفان وأنا

كما فعلت بزوجة أبيك وزوجة أخيك فعل بزوجتيك، وكما ولدتا ابنين ليسا من صلب زوجيهما ولدت زوجتاك أيضا ابنين ليسا من صلبك.

اشرب يا شريف، اشرب من الكأس الذي أسقيته غيرك، الآن عرفت سبب قسوتك وتعذيبك لي، ومقتك وبغضك لي، لقد ... لقد حاولت قتلي عندما تركتني على شجرة الجميز معلقًا والثعبان يزحف نحوي وأنا أستغيث:

ــ أبي أنقذني يا أبي أنقذني، الثعبان سيقتلني

كان ينظر إلي وهو واقف تحت الشجرة، لو مدّ ذراعيه لتلقفني من

قدماي، ولكنه لم يفعل وتركني أصرخ أستغيث والثعبان يسعى نحوي، ولولا أني تركت العنان لنفسي لتقسط على الأرض فتنكسر رجلي لكنت الآن في عداد الموتى.

لم يحملني ولم يأبه بي وتركني أصرخ وأتوجع وأتأوه من رجلي التي كسرت وناديته:

ــ الحقني يا أبي ... لقد كسرت رجلي ... لماذا لا ترد عليّ؟

ــ انتظر هنا حتى أنادي أحدًا يحملك .

ــ لا .... لا تتركني مع الثعبان .. سيقتلني

ــ لقد ذهب إلى حال سبيله، ولن يعود مرة أخرى .

ــ أرجوك يا أبي لا تتركني ودعني أستند عليك أرجوك لا تتركني هنا.

وهمت عيناي بالدمع وتوسلت إليه، وكدت أن أقبل قدميه، لولا أنه أخذ بيدي ورفعني وتسندت عليه ....

الآن عرفت سبب قسوتك عليّ ... لكن أنا ابن من؟ ربما يتضح ذلك في المذكرات الملعونة .

وعاد مرة أخرى إليها بعدما تجرع كأس خمر:

«لابد أن أعرف الحقيقة، أنا لا يهمني معرفة حقيقة ابني آدم من إيفان بقدر ما يهمني معرفة حقيقة ابني من إخلاص، لأن إيفان هذه حياتهم، وهذا هو المعتاد عندهم، كما أنهم لن يأتوا للمعيشة هنا فيفتضح أمري، أما إخلاص وابنها هنا في مصر شيء آخر شرف وعرض وأنساب تدنيسها يساوي الموت تطير فيه رقاب».

كيف؟ كيف؟ علَّ تفكيري لم أستطع المقاومة ... دخلت مهجعي حجرة نومي، ونظرت لنفسي في المرآة لوجهي النحيف وعيناي المبرقتين وشعري الطويل المنسدل على كتفاي، والجاكتة السوداء ذات الخصر الضيق، والقميص الوردي .

وهويت بجسدي على السرير، وكأني جدار مسلح انهدّ، أحسست أن جسدي في حصن لم تزده الأيام إلا نبو أعطاف واستصعاب جوانب وأطراف .

تقلبت على السرير وكأني على جمر وأشواك صامتًا ساكنًا لم أستطع المقاومة فقد نعى الشيطان في أذناي فاستجبت لدعائه، قد فارت مراجلي ودارت بلابلي، وطبق الحزن بسيطة صدري، وأنفق الغم والغيظ ذخيرة صبري ...

وطار قلبي بجناح الوجل وطاش لبي في قبضة الوهل، قد ملكني غيظ لا يريم، وثورة لا تنام ولا تنيم، كادت نفسي بها تطيح وروحي تسري بها الريح، لم أستطع المقاومة، فخرجت مسرعًا إليها وصرخت:

ـــ أنا (وتلعثمت في الكلام وعدت أقول) أنا

نهشتني بنظرة حائرة قاتلة وقالت:

ـــ أنت ماذا؟

ـــ أنا أحبك بعنف، وطغيان يا إخلاص، فاصدقيني القول وصارحيني قد أسامحك .

ـــ أنت مجنون ومتدله وسكير.

ـ قلي ما تشائين، ولكني لن أنثني حتى أعرف الحقيقة.

ـ قلت لك أحمد ابنك، ولست بالتِّي تخون زوجها، حتى ولو كان زوجها شخصًا قذرًا مثلك، الخيانة جبلت فيك، محفورة في قلبك، مفطورة في جسدك وتجري في عروقك.

ـ ولكن أنا ... أنا مرهق قد أصابني النصب، وأريد أن أذهب إلى حانوت، كي أغير هواء وأطمئن على عائلتي.

ـ اذهب براحتك، أنا لا أقيدك

ـ ستذهبين معي أنت وأحمد.

ـ لن نذهب معك.

لم أستطع المقاومة وصحت:

ـ بل ستذهبان وستأتيان معي .

خافت من برقان عيني واحمرار وجنتي وقالت:

ـ ولكني مشغولة .... أنا معيدة في الكلية ومنشغلة بالماجستير، وأحمد عنده مدرسة وتمارين الكاراتيه في النادي .

ـ ستأخذان أجازة، فأنا أريد أن أتأكد ..

ـ تتأكد من ماذا؟!

ـ ستعرفين هناك .

كان لابد أن أتأكد بمقارنة ملامحه بملامح ابني الذي من صلبي، والذي لم أره منذ كان عمره ست سنوات، لقد نسيت شكله ولم أعد أتذكَّر شيئًا من ملامحه أو من ملامح نادية الشقية التي أطار وقوفي أمامها بعد

غياب وركود طويل أطار واقع السكون في قلبها، وأثار كوامن الشوق، وحرك في فؤادها بواعث الشجن والأنس، رأيت شوقًا يلتهب في أحشائها قدحه ومع ذلك لم أتأثر أو أضعف فلم يهرب مني شيء من شوق يحتضنها لم أحترق أو أشتعل شوقًا، بل كنت باردًا في جسدي وفي قولي، حيث بادرتها قائلًا قاطعًا صمت الموقف:

ــ أين نبيل؟

اندهشت في بداية الأمر ثم قالت:

ــ نبيل في المدرسة، لماذا تسأل عنه؟

ــ لأنه (وهو ينظر إلى عينيها) لأنه أخي ولم أره منذ ثماني سنوات .

ــ أخيرًا تذكرت أن لك أخا.

وفاجأتنا إخلاص بالكلام، وهي ممسكة بيد ابنها:

ــ لقد نسي ابنه قبل أن ينسى أخيه .

اتجهت نادية نحوهما، وقد ثار في قلبها كامن الوجوم وقالت:

ــ هذا ابنك؟!

صمت ونظرت إليه وإليها وإلى إخلاص وأمسكت بيد أحمد وقلت:

ــ سأذهب أنا وأحمد إلى فيلتنا، وعندما يأتي نبيل أرسليه إلينا

وأخذته في يدي وتركتهما واقفتين ... ووقفت خلف الباب بعدما أرتجته وسمعت نادية تقول لها:

ــ اجلسي يا دكتورة إخلاص .

ــ لا أنا متعبة من السفر، سأذهب أستريح قليلا، وفي الليل نأتي إليكم.

وعندما فتحت الباب وجدتني في وجهها فعلاها الوجوم واندهشت فقلت:

ــ ابقي هنا، أريد ألا يكون أحد معنا أنا وابني وأخي

ــ ولكني متعبة أريد أن أستريح

وكانت نادية تنظر إلينا في استغراب لمحتها وأنا أقول:

ــ استريحي هنا حتى أنهي جلستي مع أخي وابني

زاد استغرابها، فقالت إخلاص مفترة عيناها عن دهشة متتابعة:

ــ ولكن ماذا تريد منهما؟

وجئت لأنهرها، فسمعنا صوت أقدام ترقى درج السلم فإذا بفتى طويل في يده حقيبة، نظرت إليه وحدج في وقال:

ــ من أنت؟ وماذا تريد؟

ــ أنا

خرجت نادية مسرعة ولسانها يسبقها:

ــ هذا أخوك شريف يا نبيل، الذي كان مقيمًا في فرنسا، وجاء ليطمئن عليك .

كنت أحدج في ملامحه ومددت يدي نحوه بلا شعور وقلت:

ــ كيف حالك يا نبيل؟

صافحني وهو خائف وقال:

ــ الحمد لله .

فشددته نحوي أحتضنه، فانقلبت المصافحة حضنًا عميقًا، تنفست

وشممت رائحتي فيه ثم قلت:

ــ تعال معي أريد أن أعطيك هديتك .

ــ أي هدية؟

ــ تعال معي وسأوريك إياها .

ــ قالت أمه:

ــ اذهب مع أخيك يا نبيل.

تردد وهو خائف ومد حقيبته لأمه وسار معي، وفي يدي أحمد وقلبي يرتجف، وأضلاعي ترتج، وملكني الخوف واستحوذ عليّ وثقلت وطأته على أجزاء النفس وتأدت معرته إلى سواء القلب . كنت أسير بينهما وأنا أتأمله حتى أوقفتهما أمامي بعدما أعطيته هديته الثمينة، وظللت أتأمل ملامحهما وأقاربهما من بعضهما كانت هناك ملامح شبه ظاهرة، ولكنها قليلة لم تقنعني فقد كانت الملامح المتنافرة أكثر وأوسع في وجهيهما وجسميهما، لم أقتنع ولم أتأكد وظل إحساسي متأرجحًا بين الشك واليقين لم تلتقِ شفتاي بأي منهما ولم يثبت ببالي إحساسي.

أحسست باختناق، وكدت أختنق لولا أني حضنت ابني الذي من صلبي والذي ليس عندي شك في هذا، وشممت رائحته فطار كل ما كان يخنقني ثم قلت له:

ــ اذهب أنت يا نبيل لأمك كي تحضر لك الغداء.

وقلت لأحمد:

ــ وأنت اخرج انتظر أمك في الصالة، ولا تدخل عليّ أبدا حتى تأتي

أمك.

وخرجا وأوصدت الباب ورائهما، وأخرجت مذكَّراتي من حقيبتي السوداء الصغيرة التي أتيت بها إلى مصر، ووضعتها في حجرتي الخاصة مع باقي الشنط والحقائب قبل أن نذهب للقاء نادية ونبيل .

وغرقت في لجة الكتابة وسرد أسراري الخطيرة التي ضاق بها صدري وانعزلت عن الواقع، وعشت مع ذكرياتي في منطقة أخرى من حياتي حتى فتح ابنها علي الباب، وأخرجني من حالتي التي كنت فيها.

متع الغضب في عيناي فاعتدلت واقفًا ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أصرخ فيه:

ـــ ما الذي أتى بك إلى هنا؟ اخرج الآن وإلا سلخت وجهك.

لم يتحرك ولم يخف مني، وطفق ينظر إليّ في تعجب واستغراب مما زادني حنقًا وغيظًا فتحولت من مكاني من وراء المكتب وسرت نحوه بخطى سريعة، وصحت به:

ـــ ألم أقل لك اخرج من هنا ؟

لم يصرخ ولم يخرج وظل يحملق في، فطما الغضب في عينيّ ودفعته في صدره صارخًا به:

ـ اخرج ..

فانقض على ظهره، وكدت أنقض عليه، لولا أن الهانم أمه فتحت الباب ووجدتني واقفًا عند قدميه جرت عليه وانثنت عليه وهي ترمقني بغضب وتقول:

ــ أتريد أن تقتل ابنك يا شريف؟ ماذا فعل لك كي تنهره وتدفعه هكذا؟

لم أعرف كيف أجيب وفاجأني الجواب فتعللت بأنه دخل مكتبي عليّ بدون استئذان فقالت:

ــ إنه طفل صغير، ولم يدرك بعد .

ــ ولكنكِ لست صغيرة، وأظن أن إدراكك ناضج جدًا، وعلى قدر كبير من الوعي والانطلاق .

ــ ماذا تعني بكلامك هذا؟

ــ أنت تعلمين وأنا أعلم .

ترفع رأس ابنها وتوقفه، وتهمس في أذنه بالانصراف فينصرف،ويغلق الباب وراءه، ونظرت إليّ في تفحص واستبيان:

ــ أنا لا أعلم ماذا تعني؟ وعن ماذا تتكلم؟ وإلى ماذا ترمي بكلامك الخبيث هذا؟

ــ لا، أنتِ تعلمين .

ــ أعلم ماذا يا ظالم؟

رفعت يدي لألطمها على وجهها، وهي تحدق فيّ، ثم نظرت إليها، فبادلتني بنظرة حماسة فأنزلت يدي ممسكًا بكلتا يديها بقوة وأنا أقول مستعطفًا إياها:

ــ تعلمين أني مازلت أحبك، اصدقيني القول يا إخلاص وصارحيني أنا أتقلى على جمر الشك .

نزعت يدها من قبضتي، وقالت:

ــ أنت مجنون ...

ودخلت حجرتها مع أحمد وتركتني راكبًا أضاليل الهوى،وأحاديث النفوس القاتلة، ووساوس الريب والتهم، قد نشأت غيوم الغيظ والغضب في رأسي ترى من هو الذي عشقته وخانتني معه؟ هل هو أخي عزت أم ....

حيرة وشك وصراع داخل نفسي محتد، أغلقت باب مكتبي علي هذه المرة بإحكام، ورجعت إلى ذكرياتي أرسمها في مذكَّراتي وأنا أضطرم وأحتدم أغالب غيظي وهو يغلبني، وأكاظمه وهو يشغلني، قد التهبت جمراته في صدري، ونطقت ترجمة الحقد عن عيني .

حتى كدت أن أفتك به ذات مرة، عندما دخلت مكتبي بعد ثلاثة أيام من تلك الحادثة، ووجدته جالسًا، يقرأ في مذكراتي فجذبته وصككته على وجهه، ودفعته فوقع على الأرض، وأنفه ترعف بالدم، اضطربت يداي وكدت أهوي عليه أخنقه وأخنق عاري، ولكني تراجعت متقهقرًا، ثم تقدمت ورفعته وأمسكته من يده اليمني، ورميته خارج مكتبي وأوصدته علي كعادتي وغرقت في لجة الكتابة ...

تمنيت أن يموت وأن يغور من حياتي حتى عندما كان على الشجرة التي في حديقة الفيلا، تمنيت أن يقتله الثعبان كي أستريح منه إلى الأبد، وتزول عني همومي، ولكنه نجا في تلك الحادثة فغلفتني الهموم والوساوس والأفكار السامة ..

هثت قواي وعزائمي تحت وطأة الوساوس والأوهام الفاتكة، التِّي نمت وبلغت أقصاها برفضها الرحيل معي إلى لندن ...

ازورت عيناي وغارت في خندق من نار وقلت وأنا ألملم ما تبعثر من قواي وصبري:

ــ لماذا ترفضين السفر معي إلى لندن ؟

قالت متبجحة:

ــ لأن عملي هنا، أنا معيدة في الكلية ووراثي دراساتي وماجستيري وعما قريب سأصبح دكتورة في الجامعة.

ــ تستطيعين أن تعملي هناك ما تشائين.

ــ ولكني لا أريد أن أعمل هناك .. وطني يحتاجني ويحتاج لأمثالي من النساء المدركات الواعيات .

ــ دعك من هذه الشعارات الباطلة، والأقوال الواهمة التي تطم بها عقول النساء الناقصات والفارغات من كل شيء، وقلي لي الحقيقة وسبب رفض مقنع

صرخت:

ــ أنا لست واهمة، أنت الواهم، وعقلي ليس فارغًا بل عقلك أنت

ــ لن تسكتيني بصوتك الفاقع، وقلي سبب رفضك الحقيقي .

ــ ماذا تريد أن تعرف؟

ــ لماذا لا تريدين أن تأتي معي أنت وابنك؟ هل .....

ــ هل ماذا؟ أكمل ..

ــ هل هناك آخر في حياتك؟

قالت بصرامة وبثقة عجيبة:

ــ نعم هناك آخر في حياتي .

جن جنوني وصعقت مسكتًا وجذبتها من ذراعيها ونعقت بها:

ــ من هو ؟ تكلمي

ــ اترك ذراعي، اتركني

وجذبت ذراعها من بين مخالبي

ــ هل هو والد أحمد الحقيقي؟

تغير وجهها مغبرًا مدخنًا، وزعقت محاولة التماسك:

ــ أنت مجنون، ومكانك الحقيقي هو مستشفى المجانين .

ــ تكلمي، أجيبي على سؤالي : من هو؟ وهل هو والد ابنك الحقيقي؟

كانت وكأنها تحاول أن تخفي شيئًا من خلف كلامها الحاد، حيث زاغت عيناها وانحرفت قليلا، وهي تقول:

ــ أنت مصر على الوقاحة والسفالة والجهالة،وتتهمني في شرفي وترميني بالخيانة وتقذفني بالزنا .

ــ أنت قلت الآن هناك آخر في حياتك .

ــ نعم هناك آخر في حياتي، ولكنه ليس كما طبع في عقلك الملوث الآخر هو عملي هنا وكياني المعجون بطين هذا البلد، الآخر هو ابنك الذي من صلبك ومستقبله، أريده أن يتربى، وينشأ هنا في مصر في مدارسها وجامعاتها، في بلد مسلم، يتربى على شرائع الإسلام السمحة، أريده قويًا

لا أريده ضعيفًا جبانًا مثلك، لا أريده هاربًا دائمًا مثلك .

صلقت بها:

ــ أنا لست جبانًا، ولست هاربًا من شيء، وقوتي الزائدة هي التي جعلتني أترك هذا البلد، ليس هروبًا، وإنما إصلاح وتحديث لنفسي وتطوير لفكري وعقلي، لم أرد أن أعيش هنا متخلفًا كأمثالك من المتخلفين والمتخلفات.

فترت شفتاها عن ابتسامة مستفزة وقالت:

ــ تدعي التطور والتحديث، وأنت أكثر الناس سفالة وجهالة وسفهًا وحمقًا .

ــ لقد أصبح لسانك مقراضًا وفمك بذيئًا، لا يزال يخرج منه كلام يقطر منه دمك الفاسد الخائن .

ــ قل ما يحلو لك، كل ما أقوله لك: سلامًا

ودارت لتتركني، وتنصرف، فأمسكت ذراعها من الخلف،فالتفت فصرخت بها:

ــ أنا لست من الجاهلين ولم أخاطبك بجهالة كي تقولي لي سلامًا

ــ أنت منغمس في عيبك، تكذب لذيلك على جيبك، تقول بهتًا وزورًا بحتًا، ومع ذلك تقول إنك لم تخاطبني بجهالة وسفالة، فما الجهالة والسفالة برأيك إذن؟

ــ الجهالة والسفالة هي ما أنت عليه .

لفت بكامل بجسدها ونعقت كالغراب:

ــ بل أنت الجاهل السافل، وحياتك كلها جهالة وسفالة وفسق، وأفعالك كلها خبث وقذارة وأقوالك كلها زور، وما تفعله أنت تتهم به الآخرين، تحسب كل الناس مثلك .

ــ لا تجعلي الحوار، يضطرم نارًا بيننا، واجعلي له نهاية .

ــ نهايته أنني وابنك لن نرحل معك إلى أي مكان .

ــ ما السبب؟

ــ لا تجعل الحوار يبدأ من جديد، ومن الآخر أنا لا أريدك في حياتي، وابني لا يريدك في حياته، بعدك عنا أفضل من وجودك بيننا .

ــ أتكرهينني إلى هذه الدرجة يا إخلاص؟ ما الذي غيرك؟ وأين حبك لي؟

ــ لقد ذاب كما يذوب الثلج، وكل ما يربطني بك الآن هو أحمد

ــ أنتِ مازلتِ زوجتي ولن أطلقك أبدا .

ــ أنا لست بحاجة إلى الطلاق مع يسر حصولي عليه، لا أريد أن ينظر لي أحد نظرة سيئة، ويتحدث عني زورًا، أنت كما تعلم نظرة مجتمعنا للمطلقات سيئة، وأنا لا أريد أن تحوم حولي الشائعات، فأنا مكتفية بذاتي وبابني، ولا أريدك في حياتنا .

لم أفهم كلمة «مكتفية بذاتي» ربما لأني لم أعيرها اهتمامًا فقد كان كل ما يجول بخاطري هو إحساسي أنها تغضبني، فكدت أن أفقد أعصابي وأهجم عليها وأخنقها حتى الموت، ولكني تماسكت وتقهقرت إلى الخلف، ودخلت حجرتي ألملم أشيائي وحاجاتي كي أرحل من هذا البلد

الذي كرهني ومقتني وأعود للبلد الذي عشقني وعشقته وناداني فلبيته .

أحسست بعبيق النسيم العطر فور هبوطي من الطائرة، ودلفت مسرعًا ممتطيا تاكسي إلى شقتي مشتاقًا إلى إيفان وآدم، فلم أمارس الجنس منذ هبطت مصر .

كنت مليئًا بالسعادة العامرة في قلبي والساكنة في وجهي، ولكن كل هذا تبعثر عندما بحثت عنهما في كل ركن من أركان الشقة فلم أجدهما بحثت يمينًا وشمالًا شرقًا وغربًا فلم أجد شيئًا، ووجدت خطابًا ملقى على السرير، فهمت الوضع والحالة قبل أن أفتحه لكن زاد ظني بقراءته فقد تركتني ورجعت إلى صديقها «بيتر كيفن» ومعها آدم، ولن تعود إليّ مرة أخرى، فقد شعرت أنها لن تعد تستطيع أن تستغني عنه بعدما جاءها هنا في شقتي وعاش معها كزوجين لمدة شهر ثم هربت معه .

يالك من فاسقة !

ما هذا الذي يحدث لي؟ تكال إلي صفحات الخيانة كما كلتها لغيري هذا خطأي أنا ما كان يجب أن أتزوج عاهرة من عاهرات لندن. وعلى كل حال هذا أحسن بكثير من تقييدي فأنا ما جئت هنا إلا من أجل الحرية وها أنا أعود إليها مرة أخرى ..

أحسست بالراحة والنشوة وأنا أسير في شوارع لندن ميدان بيكاديللي العزيز إلى قلبي حديقة هايد بارك العجيبة، وغشيت من جديد حانات توتنهام كورت لورد، حيث لقائي الأول والأخير بالفاسقة لوسي .

غشيت أكثر نوادي لندن الليلية، وملاهيها من الشرق إلى الغرب

واستحوذت عليّ الخمر من جديد، وساقتني إلى مهالك الرذيلة والفاحشة من جديد .

كنت أرتكب الفاحشة مع مريضاتي في عيادتي الخاصة، وكن راضيات بذلك لما أقنعتهن بأن هذا من العلاج لنفسياتهن المكتئبة، وارتكبتها مع بعض طالباتي في الكلية في إحدى دروات المياه الخاصة بأعضاء هيئة التدريس .

.....

مرت بي السنون وتتابعت السنة تلو الأخرى دون شعور مني بمرور الوقت مرت السنون، وأنا على هذه الحال عربيدًا سكيرًا فاحشًا أعاقر الخمر مدمنها هي والفواحش، لم أدع فاحشة أو رذيلة من زنا أو لواط إلا فعلتها دون حياء مني أو تفكير في الآخرة .

مر العمر يدلف من بين أصابعي، لم أدر ما عدد تلك السنين، التي نسيت فيها أهلي ووطني وكل ما فيه، نسيت الشرف والفضيلة والتوبة والرجوع إلى المولى، إلى أن أهداني طالب سوداني يدعى «علي عابد» أسود اللون ذو مشافر جعد العشر، أهداني كتابا على غفلة مني .

اندهشت وسألته عن السبب فقال وهو يعبر عن سعادته بابتسامة هائمة على شفتيه:

ــ ألست مسلمًا مثلي؟

أرجفتني جملته هذه، وأوجفت قلبي وأخشعت بصري ثم قلت:

ــ نعم، ولكن هذا ليس سببًا لتهديني

زادت ابتسامته مبرزة أسنانه البيضاء:

ــ أنا أرى أن هذا سبب قوي، قال الله عز وجل : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} والرسول عليه الصلاة والسلام قال: ((تهادوا تحابوا))، فأنت أخي في الإسلام، وعليّ لك حق، وعليك لي حق .

اندهشت أكثر وقلت مبتسمًا:

ــ ما اسمك يا فتى؟

ــ أنا علي عابد من السودان، وقد علمت أنك مصري، ومقيم هنا منذ زمن طويل، إذن نحن إخوة في الإسلام، وإخوة في العروبة وإخوة في الجوار .

ــ أتصدق لقد نسيت كل شيء عن حياتي السابقة، نسيت أن لي أخا وزوجة وأبناء وأهل كُثر، نسيت الوطن وناسه، ونسيت أشكالهم وصورهم المميزة، أنت الوحيد الذي ذكرني بكل هذا بعد كل هذه السنوات الطويلة التي لا أعلم عددها إلا ما يظهر من أثرها على شعري ووجهي.

ــ الحمد لله الذي جعلنا مذكرين لبعضنا في أوقات ضعفنا وبعدنا وغربتنا .

ــ أنا لا أشعر هنا بأي غربة، أنا أشعر أني في بلدي، ربما أنت تشعر بالغربة، لأنك لم تلبث هنا مثلما لبثت أنا .

ــ ليست الغربة ببعد المسافات وطول السنين:

ليس الغريب غريب الشامِ واليمنِ إن الغريب غريبُ اللحد والكفنِ

صعقني قوله حتى أسكت، أدمت النظر إليه في سكون، وأمسك بالكتاب الذي وضعه على مكتبي في المدرج ومد يده بي إليه مرة أخرى وقال:

ــ هذا الكتاب مفيد وماتع جدًا، ستعرف فيه الكثير عن الآتي

أخذت الكتاب في صمت مع أني كنت رافضًا أخذه، ولكني أخذته كأني مغيب، وأتأرته بصري حتى غاب عن عيني، أخذته وسرت في صمت نحو مكتبي في الكلية، وأغلقت الباب علي ، وجلست أنظر إلى الكتاب، أفزعني عنوانه:

«التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»

للإمام القرطبي

فزعت من اسم الكتاب، أصابني العبوس، لأول مرة أتذكر الموت منذ أمد .

رفعت يدي في تردد أرفع جلدته كي أشرع في قراءة مادته، كنت خائفًا ولكني رفعتها، ورأيت أمامي ورقة مثناة نصفين ليست من ورق الكتاب لونها أصفر باهت، كأنها مقطوعة من كتاب آخر؛ لأن لون ورق الكتاب غير لونها .

أحسست أنها بيت القصيد، وأنها المقصودة فتحتها في تردد بالغ فوجدت فيها قصيدة كثيرة الأبيات أول بيتها تلك الجملة التي قالها لي وصعقتني:

ليس الغريب غريب الشام واليمن

إن الغريب غريب اللحد والكفن

بدأت أفهم مراده عندما دخلت في قراءتها في صمت وخوف :

ليس الغريب غريب الشام واليمن

إن الغريب غريب اللحد والكفن

إن الغريب له حق لغربته

على المقيمين في الأوطان والسكن

لا تنهرن غريبا حال غربته

الدهر ينهره بالذل والمحن

سفري بعيد وزادي لن يبلغني

وقوتي ضعفت والموت يطلبني

ولي بقايا ذنوب لست أعلمها

الله يعلمها في السر والعلن

ما أحلم الله عني حيث أمهلني

وقد تماديت في ذنبي ويسترني

تمر ساعات أيامي بلا ندم

ولابكاء ولاخوف ولاحزن

أنا الذي أغلق الأبواب مجتهدا

على المعاصي وعين الله تنظرني

يازلة كتبت في غفلة ذهبت

ياحسرة بقيت في القلب تحرقني

دعني أنوح على نفسي وأندبها
وأقطع الدهر بالتذكير والحزن
دع عنك عذلي يامن كان يعذلني
لو كنت تعلم مابي كنت تعذرني
دعني أسح دموعًا لا انقطاع لها
فهل عسى عبرة منها تخلصني
كأنني بين جل الأهل منطرحًا
على الفراش وأيديهم تقلبني
وقد تجمع حولي من ينوح
ومن يبكي علي وينعاني ويندبني
وقد أتوا بطبيب كي يعالجني
ولم أر الطب هذا اليوم ينفعني
واشتد نزعي وصار الموت يجذبها
من كل عرق بلا رفق ولا هون
واستخرج الروح مني في تغرغرها
وصار ريقي مريرًا حين غرغرني
وغمضوني وراح الكل وانصرفوا
بعد الإياس وجدوا في شراء الكفن
وقام من كان حب الناس في عجل
نحو المغسل يأتيني يغسلني

وقال ياقوم نبغي غاسلًا حذقًا
حرًا أديبًا أريبًا عارفًا فطن
فجاءني رجل منهم فجردني
من الثياب وأعراني وأفردني
وأودعوني على الألواح منطرحًا
وصار فوقي خرير الماء ينظفني
وأسكب الماء من فوقي وغسلني
غسلًا ثلاثًا ونادى القوم بالكفن
وألبسوني ثيابًا لاكمام لها
وصار زادي حنوطي حين حنطني
وأخرجوني من الدنيا فوا أسفا
على رحيل بلا زاد يبلغني
وحملوني على الأكتاف أربعة
من الرجال وخلفي من يشيعني
وقدموني إلى المحراب وانصرفوا
خلف الإمام فصلى ثم ودعني
صلوا علي صلاة لاركوع لها
ولاسجود لعل الله يرحمني
وأنزلوني إلى قبري على مهل
وقدموا واحدًا منهم يلحدني

وكشف الثوب عن وجهي لينظرني
وأسكب الدمع من عينيه أغرقني
فقام محترماً بالعزم مشتملا
وصف اللبن من فوقي وفارقني
وقال هلوا عليه الترب واغتنموا
حسن الثواب من الرحمن ذي المنن
في ظلمة القبر لا أم هناك ولا أب
شفيق ولا أخ يؤنسني
وهالني صورة في العين إذ نظرت
من هول مطلع ما قد كان أدهشني
من منكر ونكير ما أقول لهم
قد هالني أمرهم جدًا فأفزعني
وأقعدوني وجدوا في سؤالهم
مالي سواك إلهي من يخلصني
فامنن علي بعفو منك يا أملي
فإنني موثق بالذنب مرتهن
تقاسم الأهل مالي بعدما انصرفوا
وصار وزري على ظهري فأثقلني
واستبدلت زوجتي بعلًا لها بدلي
وحكمته في الأموال والسكن

وصيرت ولدي عبدًا ليخدمها
وصار مالي لهم حلا بلا ثمن
وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها
هل راح منها بغير الحنط والكفن
خذ القناعة من دنياك وارض بها
لو لم يكن لك إلا راحة البدن
يا زارع الخير تحصد بعده ثمرًا
يا زارع الشر موقوف على الوهن
يا نفس كفي عن العصيان واكتسبي
فعلًا جميلًا لعل الله يرحمني
يا نفس ويحك توبي واعملي حسنًا
عسى تجازين بعد الموت بالحسن
ثم الصلاة على المختار سيدنا
ما وضأ البرق في شام وفي يمن
والحمد لله ممسينا ومصبحنا بالخير
والعفو والإحسان والمنن

وجفت مدامعي، وارتجت أضلاعي وأسكتت أعضاء جسمي كلها، ورأيتني في القبر منطرحًا عاريًا وحيدًا في ظلام دجوجي كليل الأعمى، وحية عظيمة تزحف نحوي طاش عقلي، وملكني الذعر كيف أهرب؟ القبر موصد بإحكام وهل لي من مهرب؟

هجمت عليّ
لا ..... لا .....
صرخت:
ــ النجدة، أنقذوني، نهشتني وغرزت أنيابها في رأسي ... لا .....
وامتلأ القبر ماء ودهنًا
قمت من نومي مفزوعًا،ونحيبي يهز أركان العمارة بل الشارع كله بل المدينة كلها:
ــ لا ... لا .... (مدافعًا بيدي عن نفسي) أبعدوها عني، أبعدوا الحية عني نظرت حولي فوجدت ظلاما، فأنرت الأباجورة، وقمت من على السرير وجسدي يتفصد عرقًا، ويتلمظ خوفًا وذعرًا .
أشعلت سيجارة وكنت أكلم نفسي:
ــ ماذا حدث لي؟ لقد كنت سويًا قبل أن أقرأ هذه القصيدة، نعم إنها القصيدة .
وهرولت مسرعًا وأخذتها من تحت وسادتي وهممت بتمزيقها ولكني تراجعت بعدما وقعت عيني على «اسم الله عز وجل»
فخفت وكأن قلبي طار بجناح الوجل، ولبي طاش في قبضة الوهل ونفسي كادت تطيح، وروحي تسري بها الريح.
أحسست أن الأرض عليّ كفَّة حابل أو أشد تقاربًا، وحلقة خاتم أو أتم تداخلًا .
قد ملكني خوف لا يريم، وذعر لا ينام، ولا ينيم

لم أستطع اللبث في الشقة، فهربت منها إلى الشارع، وقلبي يرتجف، وقدماي ترتعش، وجسدي ينتفض، وعيناي غائرتان مسكتتان النظر، كأنها رأت الموت الذي جاء مهاجمًا تقوده سيارة فائقة السرعة لم أشعر إلا وهي تنقض علي انقضاض الأسد على فريسته، اتسعت عيناي من الذعر وبعدها لم أشعر بشيء.

وأفقت من غيبوبتي على نصف إنسان، لم أجد ساقي الأيمن، ولا رجلي اليسرى كلها.

هيعت هيعة ارتجت لها أركان المستشفى، وغرقت في لجج النقاع والزعاق حتى تجمع حولي أكبر عدد من الأطباء والممرضين

زعقت بهم:

ــ ماذا فعلتم بي؟ أين نصفي الآخر؟ أين شقي الأسفل؟

تطوع أكبرهم سنًا للحديث:

ــ لقد حملت إلينا، وحالتك خطرة جدًا، لقد دهمت السيارة شقك الأسفل حتى عظامه تهشمت، فعملنا لك عملية بتر لرجلك اليسرى كلها، واستطعنا إنقاذ فخذك الأيمن وبتكنا الساق فقط .

استكت مسامعي، وارتجت أضلاعي، وهدَّ قلبي وكياني كما تهد الرواسي، وطاش عقلي، وطاحت نفسي وكأني بروحي أشاهدها وهي تخرج وألفيتها وهي تعرج .

وضنك صدري وحرج، وطار واقع السكون، وثارت كوامن الوجوم أفزعتني الصعقة، وقرضبتني الصدمة، وأسكتتني الفاجعة .

واتقدت نيران القنوط بين الأحشاء والضلوع، وانسدت مسالك السكون والاستقرار، وظلت عيناي صامتتين، ثم تحلبت منهما سحائب الدموع الغزار، وجر الدَّمع على خدي ذيول الدم، وقلبي مازال دهشًا، وبناني مرتعشًا، وعادت نفسي من البقاء مستوحشة، فاضطربت واضطرم صدري والتهب قلبي وانتهب صبري وتضاعف جزعي، وانتهى بي الهلع إلى حيث لا التأسي مصحب ولا التناسي مصاحب فنعقت ونقعت:

ــ لا ، لا ، أعيدوا إلي نصفي الآخر، لا

حتى غرقت مرة أخرى في لجج الإغماء والغياب عن الواقع المر.

(4)

الرجوع الناقص

لم أكن أتصور في يوم من الأيام أني سأعود إلى مصر للمرة الأخيرة في هذه الحالة على كرسي متحرك يدفعه أخي نبيل الذي جاء مسرعًا لما علم بالخبر .

وجدت عائلتي كلها في المطار تنتظرني، زوجتي، وابني الشاب وزوجة أبي وأخي نبيل وأبناء أعمامي، وأبناء أخوالي، لكني لم أرَ أخي عزت وأسرته، فتحسرت كما تحسروا، عندما رأوني نصفين نصف حي قعيد على كرسي ونصف ميت محنط منتن في صندوق، رأيت عبارات وملامح الشفقة والعطف على وجوههم، ذهلوا وأسكتوا صعقًا عندما رأوني وتهتكت حالة الصمت والسكوت بجري ابني عليّ باكيًا:

ــ أبي !

نام على صدري وأوغـل في بكاء ونشيج طويل مطلقًا أسراب الدموع حتى ابتلت ثيابي، رفعت رأسي ونظرت إلى وجوههم فرأيت أجفانهم جميعا غرقة بالدمع مجهشين في البكاء والنحيب وأعلنوا الصياح

والضجيج .

تعجبت من موقفهم وحزنهم، فصاحب المصيبة لم يفعل مثلما فعلوا، ولم يجزع مثلما جزعوا، وإنما رضي بعد حزن اختفى بسرعة، وعرف أنه لا حيلة وقد حل القضاء وفرض العزاء لقدر الله ونزل البلاء الجسيم وكتب الرضاء والتسليم، فلا خيار على القدر .

والله العدل وحكمه الفصل وقضاؤه ماض وهو عدل يولي ويبتلي ويسلب ويعطي ويعير ويرتجع ويمنع وينتزع، وأمره لا يقابل إلا بالرضا والصبر على ما قضى، فاللهم لك الحمد والشكر .

رضيت بالقضاء العادل من الملك العدل، كنت أعلم أنها لعنة ذنوبي لحقتني فشرمتني ولحبت لحمي ومسحت عظمي .

قنعت ورضيت وشكرت الله عز وجل، وأنا أنظر إلى شقي الأسفل وهو يدفن في مقابر العائلة في قريتنا حانوت السباخ، نظرت والأحشاء محترقة وأجفاني بمائها غرقة.

ورغم كظمي لجزعي وهلعي إلا أن نيرانًا مستعرة اتقدت بين الأحشاء والضلوع، وأنا أنظر إلى أيديهم تهيل التراب على ساقي ورجلي في لحدي.

لم أستطع، طمت النار فانفجرت في البكاء والعويل وفقع صوتي وعلا خنيني، فالتفتوا إليّ محاولين إسكاتي وتهدئتي إلا أن ابن عمي «راغب» رجل القانون المستشار المعروف قال لهم بصوت متهدج:

ــ دعوه يبكي، إن الفجيعة إذا لم تحارب بجيش من البكاء، ولم يخفف

من أثقالها بالدموع تضاعف داؤها، وعز دواؤها اتركوه يشفي غليله ويبرد ناره بما يستدره من دموعه المتحيرة فإن في إسبال العبرة والإجهاش بالبكاء، تنفيسا من برحاء القلوب وتخفيفا من أثقال الكروب .

رفعت بصري ورمقته وأجفاني شرقة بالدموع ونيران الألم والآهة مازالت مستعرة بين الأحشاء والضلوع .

ومازال قلبي دهش، وبناني مرتعش، وعيناي مزورة محسورة مررت بهما على وجوه الواقفين حولي لأرى ما تخفيه، وما تبديه هذه الوجوه .

لمحت حزنًا عميقًا وحسرة بالغة في عيون أخي نبيل أقصد ابني وأمه نادية وابن عمي راغب .

ولمحت شماتة في عيني إخلاص المتواريتين خلف نظارتها الشمسية، ورأيت لا مبالاة في عيني ابني أحمد الذي لا أعرف حتى الآن هل هو من صلبي أم لا؟

مررت بهما، ثم أثبتهما على باب القبر، وهو يسد بالطوب والأسمنت حتى قذعت عيناي، وسمعت أذناي صوت ينادي بصوت رقيق:

ــ دكتور شريف، دكتور شريف .

فالتفت فوجدته نبيل يقول وهو يهم بدفعي بالكرسي:

ــ هيا لننصرف من هنا، لقد أنهيت أعمال الدفن .

ــ لا، لن أنصرف من هنا .

فقال راغب:

ــ لماذا يا دكتور شريف؟

ــ أريد أن أقبع هنا بعض الوقت بجوار بقيتي المدفونة هنا

فرد مندهشا:

ــ لماذا يا شريف؟

ــ لأني أريد أن أختلي بنصفي الأسفل، وأكون قريبًا منه أثناء الحساب.

بدت الدهشة تتسنم الوجوه وقال راغب مندهشا:

ــ أثناء الحساب؟ ! إنه لن يحاسب يا شريف؟

ــ ولكنه سيشهد عليّ .

ــ سيشهد عليك بماذا؟

ــ بأشياء كثيرة .

ــ ولكن هذا سيكون يوم القيامة وليس الآن.

ــ ولكن القبر أولى مراتب الآخرة، وما بعده يتوقف عليه، إن كان خيرًا سأستريح وأطمئن وإن كان غير ذلك .....

ــ وكيف ستعرف وأنت لم تمت بعد؟

ــ أليست أعضائي داخل القبر سأشعر بها كما هي تشعر بي سأشعر بعذابها أو بنعيمها .

ــ ياشريف ..

وقاطعه نبيل:

ــ دعه يا سيادة المستشار كما يريد، اذهبوا أنتم وأنا سأظل هنا بجواره إلى أن يطلب الرجوع .

ــ ولكن ....

ــ لا تقلق يا سيادة المستشار، سنكون بخير .

ورحلوا جميعًا، وبقيت أنا ونبيل أمام قبري أنظر إلى قبري ودموعي يشرق بها وجهي، أما هو فكان ينظر إلي في حزن صامت ربما نزلت دموع من عينيه ولكني لم أرها

ظللنا هناك بين القبور يظللنا صمتها الظاهر حتى خفقت رايات الظلام ولبس الكون جلبابا من القار .

فقال نبيل:

ــ لقد غمرنا الظلام يا أخي واستوحش المكان، هيا بنا نرحل من هنا، لقد بدأ قلبي يرتجف وأناملي ترتعش وأعصابي ترتعد .

رفعت رأسي، وكانت مدلاة على صدري، ولحظته من جانب أذني اليسرى وهززت رأسي بالموافقة فانتصب واقفا، وقال يبغي التأكيد:

ــ نرحل؟

فقلت له في حسرة وألم:

ــ نعم، نرحل .

ـ هل شعرت بشيء؟

ــ شيء مثل ماذا؟

ــ مما قلته سابقا عن العذاب والنعيم .

ــ لم أشعر بشيء، الله وحده العالم بما يحدث داخل القبر، هيا نرحل من هنا

(5)

مبروك الطيب

بت على فراشي إنسانًا ناقصًا، لم يشغلني ذلك كثيرًا، كل ما شغلني وأقض مهادي وأقلق وسادي، هو تفكيري المستمر في شكل العلاقة الجديد بيني وبين زوجتي وأحمد.

تصورت في أوقات كثيرة، وربما أيقنت في قليل منها أن ما حدث لي سيرأب الصدع الفاهق بيني وبينها، وأن شكلي الجديد سيفتق حزازات الصدور، ويهتك ويرتم الجدار الصلد الذي كان يحول بين قلوبنا .

أو أن هيئتي الحالية ومصيري القادم سيثير في قلبيهما رياح العطف والحنان ويسوقهما نحوي يأخذاني في حضنيهما يحدبان عليّ يسكبان أنهار الحب فوقي وحولي ومن كل مكان .

ولكن ....

طاش تصوري وحطم يقيني ودغم حدسي وهضضت الأحلام والخيالات التي عشتها معهما في فكري وفي فؤادي .

يالني من ساذج جاهل !! كان يجب أن أفكر بواقعية قح وأن أعرف

أنها سترفض، ولكني لم أكن أتوقع أنها سترفض هذا الرفض البذيء القذر وتتحجج بهذه الحجج الواهية وكأني حشرة .

فهمت ذلك من كلامها لي قبل رحيلها، وفي يدها الدلوعة ابنها عندما قلت لها:

ـــ أنا سأظل هنا حتى يتوفاني الله .

ـــ كما تشاء، أما أنا وأحمد فسنسافر اليوم إلى القاهرة .

ـ كيف؟! أتتركاني هنا وحدي؟

ـــ أنت الذي اخترت، وكان اختيارًا جيدًا وفي محله، فمن الأفضل لك أن تبقى هنا بين أهلك، كي يعتنوا بك ويرعوك ويأخذوا بالهم منك في جميع الأوقات،أما إذا أتيت معنا فلن تلقى نفس الرعاية والعناية فأنا معظم وقتي أقضيه بين الكلية والعيادة ومستشفى الجامعة، ولا أصل البيت إلا متأخرًا، وأحمد ابنك مشغول بدراسته، أنت تعلم أن الدراسة في كليته شاقة وعسيرة وتواجده في البيت قليل بل معدوم، فأنا لا أراه إلا نادرًا، لذلك لن تجد أحدا يهتم بك مثل اهتمام أولاد عمومتك بك هنا، فأنا أرى أنهم يحبونك حبًا شديدًا .

هززت رأسي ألمًا، وتميز فؤادي حسرة، وتلمظت رأسي غيظًا، وسرى في جسدي سيل من اللوعة، وبكى قلبي، وكادت عيناي تذرف الدموع لولا أني تصلبت وتحجرت، ورفعت رأسي ثابتًا قائلًا:

ـــ ومن سيقوم على شئوني الخاصة هنا؟

قالت ببرود:

ـــ أبناء أعمامكم وأبناؤهم وزوجة أبيك وأخوالك .

ـــ ولكن هناك أمور شديدة الخصوصية وأمور محرجة ومخجلة لا تكون إلا بين الزوجين .

ضحكت ساخرة، وقالت دون استحياء من ابنها الواقف بجوارها:

ـــ كيف تفكر في أمور مثل هذه وأنت في حالتك تلك، دع هذه الأمور للأصحاء ذوي الأجسام الكاملة، والأعضاء التامة .

تحركت شجوني، وماج قلبي، واضطرم جسدي نارًا، واضطرب ما بقي من أعضائي وفقعت صراخي قائلًا:

ـــ ومن هذا ذو الأعضاء التامة، وا.....

كدت أكملها لولا أنه كان واقفًا ممسكًا بيدها ذلك الشاب الرقيع الذي تدعيه ولدي، وهدأت من ثورتي ورجعت بظهري للوراء واعتدلت في جلستي وقلت مخاطبًا إياه:

ـــ كيف ستترك أباك في هذه الحالة وترحل يا أحمد؟ !

نظر إلى أمه قبل أن يرد عليّ، ثم قال متلعثمًا في الكلام:

ـــ ولكن ... ولكني منشغل يا والدي بالدراسة، أنت تعرف أن كلية الشرطة من الكليات الشاقة العسيرة ذات الطابع العملي المر، كما أني كيفت نفسي على الحياة في المدينة، ولن أستطيع بحال من الأحوال المكوث في القرية ولو لأيام، لقد صنعت إنجازًا كبيرًا بمكوثي هنا سبعة أيام .

ـــ فعلًا ، لقد فعلت إنجازًا ضخمًا يا ولدي، في رعاية الله يا ولدي أنت وأمك، ولكن اسمع لا تعطِ أمانا في هذه الدنيا، فقد يأتي يوم تجلس فيه

جلستي هذه هنا في هذه القرية، وفي هذه الدار وتكون آخر أيامك هنا، خذ مني عبرة وعظة، لا تأمن مكر الله، مع السلامة .

ــ أرى وجهك بخير يا أبي .

وقبلني ولم أقبله، وانصرف قبل أمه يسبقها إلى السيارة، وتركها تنظر إليّ في شماتة واستهزاء، خفضت رأسي ورفعتها وعيناي مرتعتان بالدمع، وهي مازالت تشفني في بغض وكره وربما تعجب مما آل إليه حالي..

ثم ارتدت نظارتها السوداء وقالت ببرود:

ــ أرى وجهك بخير يا دكتور شريف، خذ بالك من نفسك، أعرف أنك لن تعرف لكنهم هنا سيعرفون، وسيأخذون بالهم منك. لقد تكلمت مع المستشار راغب والحاج عبد الكريم وموسى أبناء عمك «عبد الشكور» عنك وعن مصيرك هنا، وأبدوا لي أنهم وباقي أفراد العائلة في خدمتك ورعايتك، أول مرة أرى أناسًا يحبونك إنهم يحبونك حبًا جمًا، وسوف يساعدونك، وإذا أردت أي شيء اتصل بي، رقم تليفوني، وعنواني الجديد مع راغب ابن عمك، ألا تريد أي شيء قبل رحيلي؟

نظرت إليها في قرف، ثم بصقت على الأرض، فضحكت بسخرية وهزت رأسها ومشيت مسرعة وأنا أتأرها بصري حتى غابت عن عيني .

وسمعت صوت السيارة ينطلق، حتى لم يعد يسمع، غشيتني بعدها راحة سكنت سواء الصدر، وحلت سواد القلب .

أقنعت نفسي أنهما ماتا، ودفنا مع ما دفن من أعضائي، وعزيت نفسي فيهما، وكرست ما بقي من حياتي لعبادة الله عز وجل قدر استطاعتي

ولإكمال ما قد بدأته من كتابة مذكراتي في حجرة نومي التي لم أكن أفارقها إلا قليلًا وساعدني في ذلك أبناء عمي الذين أحضروا لي سيدة شابة فقيرة ترعاني وتهتم بشئوني.

كانت سيدة أرملة أم لخمسة عيال، فاتنة الجمال ذات خصر مثير، وثديين ممتلئين، وردفين كبيرين، كانت نشيطة ذات قلب حنون كفتني كل متطلباتي، كانت تقوم على جميع مصالحي، وشئوني حتى الحرجة، كانت تكنس وتنظف وتطبخ وتمسح وتقوم بجميع شئون البيت .

ارتحت لها كثيرًا ولكني ....

لم أستطع المقاومة لقد حركت بداخلي سحالي الغريزة، وبعثت فيّ أفاعي الشهوة من مراقدها، عندما كنت أراها تنثني أمامي تناول لي الطعام فيتحرك ثدياها فتضطرم شهوتي نارًا أو تنثني أمامي تكنس فيتفلق ردفاها ويتهاديان للخلف، فتشتاط أناملي وتموج ثورتي ويضطرب بركان الشهوة الخامد بداخلي .

ولكني عاجز لم أستطع فعل شيء، آه لو كنت بكامل أعضائي آه لكنت قطعتها بوس وجماع، ولكنت قضيت معها أحسن أوقات اللذة والمتعة، ولكني ناقص غير كامل بدون ساقين، وفرجي في نومته غريب، آه وآه، يا لوعتي ولوعة قلبي.

كان لابد وأن أبعدها عني كي لا أصاب بحسرة قاتلة أو غم فاتك أو لوعة مدمرة لذلك طلبت من ابن عمي عبد الكريم الذي جاءني بها أن يطردها ويبعدها عني، ورفضت إعطاء أي سبب رغم إلحاحه كل ما قلته

هو أني لا أريد نساء يخدمنني أريد رجلًا يقوم على مصالحي وخدمتي .

فرد عليّ قائلًا:

ـ ولكن من الصعب هنا أن تجد رجلًا يخدمك، فنحن في قرية، والقرية غير المدينة .

ـ إذن دعوني وشأني، سأخدم نفسي بنفسي .

ـ كيف ستخدم نفسك بنفسك يا دكتور شريف؟ ألا ترى ما أنت فيه؟ دكتور شريف، دكتور شريف

ظل ينادي عليّ وأنا جالس بجواره في حديقة الدار، وأنا سامع له ولكني لم آبه به وبندائه .

لقد كان بصري عالقًا على وجه رجل يقف خارج باب الحديقة يلاعب حصان عبد الكريم ابن عمي ويقدم له بعض أعواد البرسيم بيده اليمنى، ويده الأخرى تخطر فوق رقبة الحصان تغازل شعره الأبيض الجميل .

كان رجلًا متوسط القامة، قارب الخمسين من عمره أو أكثر، يعج وجهه بالتجاعيد والالتواءات والأوتاد، قد كسف الهرم المبكر هلاله، وأكسف باله، ومسح جماله، قد ذبل ورد خده، وتشوك زعفران خطه، قد أخمدت نار شبابه وحسنه بعد الاتقاد، ورغم ذلك كان رجلًا تأخذه العين، ويقبله القلب فترتاح له الروح .

لم أشعر إلا بانجذابي إليه وإلى صمته الهادئ، فأعرضت عن ابن عمي وعن كلامه لي، وندائه عليّ، واتجهت قلبًا وقالبًا لهذا الرجل أسطوري المظهر وهو يناغش الحصان .

اندهشت من مداعبة الحصان إياه، ووضعه فمه على صدغ هذا الرجل كأنه يقبله، والآخر قبله، وضم رأسه ودعك خده الأيمن في شعره الناعم.

تحرك فمي، وانشق عن ابتسامة تحولت إلى ضحكة واحدة واهنة الصوت، فتعجب ابن عمي من صمتي، وعدم ردي عليه، وطما تعجبه ونما بضحكي ونظري إلى ذلك الرجل فقال متعجبًا:

ــ يا دكتور شريف ماذا حدث لك؟ لماذا لا تتكلم معي؟ ولماذا هذا الضحك؟

انتبهت إليه والتفت وقلت وأنا أشير بيدي اليمنى نحو الرجل:

ــ هذا الرجل الذي يداعب حصانك، من هو؟

نظر نحوه ثم قال:

ــ هذا «مبروك» سائس خيلي وسائق الكارتة، يرافقني في كل مشاويري وأعمالي .

ــ هل هو من أهل البلد؟

ــ لا، ليس من أهل البلد، ولا أحد منا يعرف من أين هو؟

ــ كيف ذلك؟

ــ لقد وجدناه منذ عشر سنوات تائهًا في القرية في ملابس ممزقة ولم يكن يتكلم

ــ لماذا؟

ــ وقتها لم نعرف، ولكننا اكتشفنا أنه أخرس .

كلبشته الدهشة فقال:

ــ ماذا؟!

ــ اكتشفنا أنه أخرس لا يتكلم، ولكنه ذكي جدًا، وسريع الفهم والانتباه .

ــ وأنت أخذته خادمًا لك ؟

ــ لم أخذه خادمًا، بل أحببته وعطفت عليه، وألبسته أحسن الثياب، وأطعمته أفضل الأطعمة، وأسكنته في مسكن واسع جميل، وجعلته صديقًا وفردًا من العائلة، لقد زاد الخير والبركة بعد قدومه القرية، وبعدما أخذته عندي زاد مالي، ونما بدرجة ملحوظة ؛ لذلك أسميته «مبروك».

نظرت إلى مبروك هذه المرة بنظرة أخرى كلها إعجاب وانبهار ووجدته ينظر نحونا، فرفعت يدي أشير له وأحييه، فرفع يده هو الآخر ورد التحية مبتسمًا، وعدت مرة أخرى لابن عمي أكلمه:

ــ أريد أن أطلب منك طلبًا يا عبد الكريم وأرجو ألا تخذلني .

ــ اطلب ما شئت يا ابن عمي، إذا كان في مقدوري لن أتأخر ثانية واحدة عن تلبية رغبتك .

ــ أريد منك أن تهدي إلي «مـبروك» يخدمني ويقوم على رعايتي ومصالحي .

وكأنه صعق، صمت قليلا ثم قال:

ــ لكن .... مبروك أخرس، وربما يسبب لك متاعب، وأنت تحتاج لمن تخاطبه وتأمره .

ــ ألم تقل أنه سريع الفهم والتعلم؟ .

ــ نعم، ولكن مبروك لن ينفعك في أعمال البيت، أنت تحتاج إلى امرأة .

ــ أنا لا أريد سوى مبروك، لا أريد صنف النساء كله، أريد رجلًا مثل مبروك أرتاح إليه ويرتاح إلي ويطيعني ولا يعصيني أبدًا.

ــ حتى ولو كان أخرس؟!

ــ حتّى ولو كان أخرس، لقد دخل مبروك قلبي وعشش فيه وارتاحت له روحي، وأرجو ألا تخذلني يا ابن عمي، هذا أول وآخر طلب أطلبه منك فلا ترفضه .

نظر إليّ مبتسمًا، وهز رأسه، ووضع يده على رأسي محركا شعري وقال:

ــ غالي والطلب رخيص يا دكتور شريف ومبروك لا يغلو عليك، لك ما تشاء، مبروك من اليوم في خدمتك وتحت أمرك وكلنا في خدمتك ورعايتك هنا .

نظرت إليه وصفان من الدموع يصطفان داخل عيناي، ثم تحولت ببصري إلى مبروك الذي رأيته يتقدم نحوي وفي يده وردة قطفها من الحديقة، ومدَّ يده بها إليّ في حب وعطف، مددت يدي اليمنى آخذًا الوردة الحمراء ثم ابتسمت له وقلت:

ــ شكرا يا مبروك .

ابتسم إليّ ابتسامة طلقة حرة ذات معاني نبيلة، وهزّ رأسه في حب وعطف ونظر إلى شقي المبتور، وهزَّ رأسه حسرة عليه وهو يشير بيده نحوه .

نظرت إلى شقي المبتور، ووافقته في حسرة وهززت رأسي مثله وكدت

أبكي لولا أن عبد الكريم قطع حالة الحزن هذه بكلامه لمبروك مستعينًا بالإشارة قائلًا:

ــ من اليوم أنت يا مبروك ستكون في خدمة ورعاية ابن عمي الدكتور شريف (ويشير نحوي) ستعيش معه هنا في هذه الفيلا،خذ بالك منه واهتم به جيدًا، وقم بجميع مصالحه، ونفذ كل ما يطلبه منك، فاهم يا مبروك .

وفهم مبروك ووعى وهز رأسه وحرك فمه مصدرًا بعض الأصوات مستعينًا بالإشارة يرد بها على ابن عمي يخبره بأنه سعيد جدًا بذلك، وسوف يعتني بالدكتور شريف جيدًا، وسوف يكون أخا له .

وصلتني الإجابة وفهمتها وحدي دون إفهام ابن عمي لي مع أني لا أفهم لغة الإشارة، وفوجئنا بانثنائه مقبلًا يدي اليمنى دون أن آخذ بالي فلم أستطع سحبها، فقبلها وقبل رأسي وعيناه تسكبان من الدمع على شعري .

ابتسمت وكظمت دمعي وقبلت رأسه وقلت له:

ــ إن شاء الله ستكون سعيدًا هنا يا مبروك .

وقال عبد الكريم مخاطبًا مبروك:

ــ نفذ جميع أوامر الدكتور شريف يا مبروك ولا تعصه وافعل كل ما يأمرك به.

رفع مبروك يده وأشار إلى عينيه قائلًا بهما:

ــ من العين اليمنى قبل العين اليسرى

التفت عبد الكريم إليّ مبتسمًا فقلت له:

ــ لا أعرف كيف أشكرك يا عبد الكريم، أنت وأخواك راغب وموسى الذين وقفتم معي في شدتي بعدما تركني ابني وأخويا.

ــ لا تسيء الظن بهم يا دكتور شريف، أنت تعرف مسئولياتهم الكثيرة فأخوك عزت أنت تعرف أنه خارج مصر هو وأسرته وابنك وأمه في القاهرة، حيث عملها ومصالحها، وأخوك نبيل عمله أيضًا في القاهرة، وأنت تعرف جيدًا مسئوليات الشرطة الكثيرة .

قلت متحسرًا:

ــ أعرف، أنا أعرف كل شيء، ولا ألوم أحدًا

ــ لا تزعل نفسك يا دكتور شريف، ولا تحمل من أحد .

ــ أنا لست زعلًا، ودعك من الكلام في هذه الأمور الآن، دعنا في أمر مبروك، ما عمره؟

ــ لا أعرف بالضبط عمره الحقيقي، ولكن يمكن يكون عمره أكثر من خمسين سنة.

ــ على العموم أنا شاكر لك جدًا على إهدائك مبروك لي.

ــ هذا شيء قليل يا ابن عمي، أنت أخي وكلنا بجوارك، لا تقلق ولا تحزن، ولا تشغل بالك، ولا تزعل من أحد .

نظرت إلى مبروك نظرة ذي علق مبتسمًا له، ومددت يدي نحوه ألمس يده في حب فابتسم إلي، وانتصب ابن عمي واقفًا وهو يقول:

ــ أتركك تستريح الآن يا دكتور شريف .

وقال مخاطبًا مبروك:

ــ هيا يا مبروك، ادفع الكرسي وأدخله حجرته كي ينام قليلًا.

مع أني أعرف كيف أدفع الكرسي بيدي بلف عجلتيه، ولكني أحب أن أرى نظرات الحب والحنان في عيني الآخرين، وخاصة مبروك الذي سيعيش معي، ودفع مبروك الكرسي برفق وأدخلني حجرتي التي أعدت لي في الطابق الأرضي إذ من الصعوبة الصعود بي لحجرتي التي في الطابق العلوي ، أدخلني وأنا في قمة سعادتي به، وبانتقاله للحياة والعيش معي، نسلي بعضنا رغم صمته الطويل، ولكني على كل حال كنت سعيدًا به، فقد كان خادمًا مطيعًا وصديقًا مخلصًا وأخًا محبًا، وجدته أكثر مما وصفه ابن عمي، كان وصفه غيض من فيض، واكتشفت فيه أشياء كثيرة ومهارات عديدة أتحفني بها مع مرور الزمن.

من ذا الذي كان سيتحملني مثلما تحملني مبروك يساعدني في أحرج أوقاتي في قضاء حاجتي، وينظفني ويغسلني ويلبسني ويعطرني ويسرح لي شعري .

لا أستطيع أن أصف مقدار كرمه ونبله معي، الأخ والابن والأب حتى الأم لم تكن لتفعل مثل الذي يفعله معي مبروك دون سأم أو ملل أو زهق أو قرف .

كان كتلة من النشاط والجلد يهتم بحياتي وببيتي وبحديقتي يسقيها وينظمها ويقطف كل يوم وردة فواحة يقبلها ويعطيها لي .

ما هذا الجمال يا مبروك؟

بعدما كانت حديقتي مرتعًا للفئران والحشرات والهوام صارت جنة

غناء وبستانا يزهو ويفتخر بالزهور والجمال بعدما دخل في معركة مع الفئران والحشرات مستعينًا فيها بكل أسلحته من سم ومصائد ورش مبيدات وعصي خرج منها منتصرًا، فإنه من الذين لا يقبلون الهزيمة أبدا هكذا عهدته، ولا يعرف اليأس ولا القنوط ولا الإحباط ولا الملل، وعنده صبر عجيب .

وبعدما كانت حياتي خرابًا ورمادًا وعفونة صارت بمبروك عمارًا ونورًا وجمالًا ونظافة، رجعت لي البسمة التي غابت عني كثيرًا، بسمة من القلب تخرج من الشغاف تبلل الشفاه، جعلني أقبل على الحياة من الجديد، بعدما يئست وتمنيت الموت حتّى إني فكرت في الانتحار أكثر من مرة، وكنت سأقدم عليه لولا أن الله رزقني بمبروك فتبددت تلك الأفكار اللعينة من عقلي

غمرني بحبه وبقلبه الكبير وبحنانه وعطفه.

ما هذا الحب والحنان يا مبروك؟

جعلني أنسى كل ما حولي، ولا أذكر سوى مبروك في حياتي، كان يدفعني أمامه إلى أملاكي وأطياني وزروعي التي أول مرة ألقى نظري عليها مع مبروك .

صنع من أجلي عريشة بالجريد والفروع والقش، أجلس تحتها أراقب الفلاحين والعمال، وهم في أرضي وهو فوق رأسي مع هذا كله بالشمسية، ثم ما يلبث أن يقدم لي العصير البارد والسندوتشات التي أعدها خصيصًا لهذه الخروجة .

لا ينسى شيئًا إلا نادرًا، يعمل حسابه في الصغيرة قبل الكبيرة، منمق ومنظم ومهندم، رجل نظيف في شكله وفي ملابسه وفي هيئته، وفي ريحته، مطيع،رقيق كالنسمة، تفتقده لو غاب عنك لحظات .

وجدته مع مرور السنين وتقادم عهدي به سليم الصدر حميده حي القلب، منشرح الصدر، ذكي الذهن .

نقي الساحة من المآثم، بريء الذمة من الجرائم، طاهر الصحيفة، طاهر من الأوزار، ليس بالنؤوم ولا السؤوم، كأن له في كل جارحة قلبًا، فقد الكلام ولكن كأن قلبه عين، وحسه سمع.

غرته يجول فيها ماء الحب والحنان والعطف والكرم، وتقرأ منها صحيفة حسن الشيم .

فخلقه كنسيم الأسحار، وأخلاقه قد جمعت المروءة أطرافها وحرس الحب والإخاء أكنافها .

قد طابت عشرته إذ عاشرته فكانت عشرته ألصق بالقلب من علائق الحب؛ ولهذا كنت من كرم عشرته وطلاقة أسرته في روضة وغدير بل في جنة وحرير .

قد أهطل علي سحائب عنايته، ورفرفت حولي أجنحة رعايته فصرت من مبروك في ظل ظليل، ونسيم عليل، وماء روي ومكان مكين، أحببته حبًا أدين به عن خالصة النفس، وأودعته واسطة القلب، وأجمعت عليه نواحي الصدر .

جمعتنا محبة لا تتميز معها الأرواح، ولا تتباين بها النفوس والمهج، صار

شقيق روحي وعديل حياتي وشريك بيتي وقسيم نعمتي، مازال مستودع سري وجهري .

ورغم أنه ليس من ذوي قربتي، ولكن المحبة إذا استمرت قواها واستحصفت عراها لم تبعد أن تزيد على الرحم قرباها.

لا أعرف كيف أشكره فشكره شأو بعيد لا تبلغه أشواطي، تولى الله عني مكافأته وأعان على الخير نياته .

لقد كان مطيعًا مخلصًا محبًا ناصحًا رغم صمته وسكوته، لقد كان طباخًا ماهرًا، ذقت أطعمة كثيرة من أيدٍ مختلفة، ولكني لم أذق طعامًا مثل طعامه لقد كان لطعامه مذاق خاص ونشوة لينة.

وكان مبروك أنيسًا مسليًا أنسي به أنس من نشد الضالة فوجد، وناهض الأمل فقصد .

لم أعد ألقى صعوبة في التعامل معه، فقد كان لبيبًا حاذقًا وصل بنا الأمر إلى أنه كان يفهم ويعرف ما أريد بإشارة العين أو اليد وكان هذا من فضل الله عز وجل عليّ أن يسر التعامل بيننا كي يستطيع مساعدتي وخدمتي فيما تبقى من حياتي وفي إتمام مذكراتي .

فقد هيأ لي الجو المناسب لإتمام كتابتها حيث ساد الهدوء والصمت في كل أركان البيت، فكنت أتنقل هنا وهناك، ومعي مذكَّراتي مرة في مكتبي ومرة في الحديقة ومرة في حجرة نومي ومرة في الحقل .

وكان قائدي أخي مبروك الذي ساعدني كأب أو أم أو أكثر، لقد ساعدني كثيرًا في الوقت الذي تخلى عني فيه أقرب الناس إليّ زوجتي وما

تدعيه ولدي، حتى أخي عندما جاء في زيارة إلى مصر لم يزرني إلا مرة واحدة منذ ثلاثين سنة، كان أجلها قصيرًا ساعة ونصف، غادر بعدها حانوت هو وابنه الذي لم أره إلا مرة واحدة في حياتي، زوجته التي شفنتني بعين المبغض الكاره، وكأنها نسيت ما كان بيننا، وما أثمر من ولد فيه شبه كبير مني .

شتان بينها وبين نادية زوجة أبي التي مكنتني من نفسها هي الأخرى، ولكنها مازالت تكن لي حبًا غامرًا حيث لم تقطع زيارتها لي، فيوميا كانت تزورني وتقوم لي ببعض المصالح والأمور .

أما هذه فكانت مشمئزة مني نظرت إليّ شزرًا كأني ألد أعدائها، كانت جالسة وكأنها على نار تلظى بين الدقيقة والدقيقة ترمق ساعتها الذهبية، نظرت إليها في سخرية واستهزاء معلنًا بعيني ما كان بيننا فانتصبت واقفة وأنفها يشتعل ثم قالت:

ــ هيا يا عزت لقد تأخرنا .

ــ انتظري قليلًا .

فوقف ابنها مؤيدًا كلامها:

ــ نعم يا والدي لقد تأخرنا، أنا لدي عمل مهم جدا في الوزارة

ونظر إلي مخاطبني:

ــ بعد إذن حضرتك يا عمي شريف سنرحل .

ابتسمت في هدوء ثم قلت:

ــ في رعاية الله يا ابني، عملك وعمل والدك وعمل والدتك أهم قم

يا عزت، ولا تقلق عليّ، فهنا أناس كثيرون يهتمون بي أهمهم أخي مبروك الطيب.

أشرت إليه فانتابتهم نظرات انزعاج من كلمة «أخي» نظروا جميعًا إلى مبروك الواقف خلفي شزرًا، ثم ودعني عزت وقبلني ورحلوا إلى غير رجعة .

نظر إليهم مبروك غاضبًا، ثم جاء عند قدمي المبتورتين،وجلس متربعًا ابتسمت إليه وقلت:

ــ أرأيت يا مبروك، هذا أخي وأسرته ابنه وزوجته تركوني في محنتي .

وزفرت من عينه دمعات، ومد فيه وقبل يدي، وربت على صدري كأنه يقول:

ــ لا تحزن، فأنا بجوارك .

نظرت إليه والدموع تملأ عيني وقلت:

ــ أنت عندي أفضل وأحسن منهم يا مبروك.

وحقًا كان عندي أهم وأفضل منهم بكثير، كان كنفسي فلم أشأ أن يتشرد من بعدي أو أن يذوق الفقر مرة أخرى، فأوصيت له بشيء في وصيتي السرية التي وضعتها عند ابن عمي المستشار راغب وطلبت منه ألا يفتحها إلا بعد موتي مباشرة وقبل أن أغسل .

كانت وصية في صفحتين أهم ما فيها هو وصيتي لهم بدفني في تابوت بعد موتي، كتبت ذلك في الوصية، وطلبت ذلك شفويًا من راغب ابن عمي أن يدفنني في تابوت زيادة في التأكيد مع أني أعلم أنه سينفذ الوصية .

وأهم شيء في الوصية هو تنازلي عن شيء كبير من ثروتي وأملاكي لمبروك بعد موتي، ورغم أنه كان شيئًا كبيرًا إلا أنه كان قليلًا على الخدمات والمساعدات التي قدمها لي مبروك طيلة هذه السنين التي قضاها معي في البيت، كان طيلة هذه السنوات التي مرت كالبرق مخلصًا لي أشد الإخلاص، رأيت إخلاصه وحبه الشديد لي بعيني وبقلبي مما جعلني أستأمنه على أخطر أسرار حياتي .

وقد ساعدني في دفن تلك الأسرار لما انتهيت من سطرها وتبويبها في مذكراتي التي أسميتها «حياة الرماد حياتي»

حيث جاء لي بقادوم وأزميل ودلو مشحون بالرمل والأسمنت من دار عبد الكريم ابن عمي لما بعثته إليه بحجة أننا سنسد كوة في الدار تغزونا منها الفئران والحشرات .

ثم أمرته برفع السجادة العتيقة الراقدة في حجرة النوم، وأشرت له على أربع بلاطات قام برفعها بالقادوم والأزميل برفق حتى لا تنكسر إحداها، وقد كان ماهرًا بالأعمال المنوط بها، فرفع تلك البلاطات دون خدش واحد فيها .

وحفر موضع الأربع بلاطات، وأزاح بعض الرمل من تحتها كي تدفن في هذا المكان مذكراتي .

واستطاع مبروك أن يحفر بهدوء لحدا لحياة الرماد التي هي حياتي .....

(6)

الرحيل الصامت

انتبه من غشية مذكرات والده، وأفاق من سطوتها وسكرتها التي سرت في جسده مغيرة لحياته ماضيه وحاضره ومستقبله، أفاق من ذلك على صوت يدعوه لزيارة الشخصين اللذين صارا روحا واحدة في جسدين، لكنه لم يكن يعرف مكان أحد هذين الشخصين، فذهب إلى عمه «موسى» رحب به ترحيبًا كبيرًا ونادى بتحضير وليمة غداء شهية لسيادة العقيد «أحمد شريف» إنه لم يـأتِ للغداء إنه أتى له ليذهبا سويا إلى عمه «عبد الكريم»

أبدى موسى دهشته، وتساءل:

ــ عبد الكريم أخي؟! لماذا؟

ــ أريده في أمر .

ــ في أي شيء تريده؟ أنت تعلم أنه مريض طريح الفراش منذ زمن ولا يحدث أحدًا، كما أنك اعذرني يا ابن أخي أنت هنا منذ أسبوع ولم تسألني عنه ولو مرة واحدة ولم تطلب زيارته، فلماذا في هذا الوقت؟

ابتسم أحمد بخبث وقال:

ــ لأني سأرحل إلى القاهرة وأريد رؤيته قبل أن أرحل .

ــ أظن أنه لن يفيدك في الأمر الذي تريده لأن الزهايمر الذي أصابه أنساه كل من حوله حتى أولاده لم يعد يعرفهم .

ــ لكن هذا الأمر مهم جدًا، وعمي راغب توفي منذ سنين، فماذا أفعل؟

ابتسم موسى كأنه يعلم ماذا يريد أحمد كأنه كان منتظرًا أن يسأله منذ قدومه حانوت، ثم قال:

ــ قل ماذا تريد يا ابن أخي؟ ربما تجد عندي الجواب فأنت تعلم أني أنا وعبد الكريم وراغب كنا نحب والدك جدًا ولم نفارقه لحظة حتى وفاته، الله يرحمه .

ابتسم أحمد هو الآخر وقال:

ــ أنا أعلم أنك تعرف عن والدي كثيرًا، وأنك كنت أول واحد قبل أخويك في فيلتنا عندما توفي أبي، ولكني كنت أعلم أن عبد الكريم ليس ابن عم أبي فحسب بل صديقه أيضا، وربما يكون عنده بعض الأجوبة لأسئلتي .

ــ معك حق كان عبد الكريم صديقًا مقربًا لأبيك، ولكننا كلنا كنا في خدمة والدك، وكنا على دراية بحالته، وبماذا يحدث له؟ وماذا يريد؟وكيف كان يعيش حياته خاصة في آخر حياته؟ لأنكم كلكم ــ اعذرني يا ابن أخي ــ أنت وأمك وعمك نبيل وعمك عزت كنتم تقريبًا كأنكم نسيتم الدكتور شريف، وأصبحت أسئلتكم عنه عزيزة جدًا إن لم تكن عدمت .

وبدا الغضب يعرف لوجه أحمد طريقًا وهو ينظر لموسى المنطلق في كلامه كأنه وجد فرصة للتنفيس:

ــ حتى أنت يا أحمد باشا كنت تأتي لوالدك مرة في السنة تقريبًا وعندما مات لم تكن في مصر على ما أتذكر كنت في أمريكا في دورة تدريبية هناك، ورفضت أن تقطع عملك في أمريكا وتأتي لتأخذ العزاء في والدك، ولم تأت إلا بعد أسبوع .

احمرت عينا أحمد، وقد لاحظ موسى ذلك فابتسم وحاول يخفف هذه الحالة، وقال:

ــ اعذرني يا ابن أخي، هذه أمور عائلية ما كان لي أن أتدخل فيها، ولكن نحن كنا عائلة والدك هنا، وقد أنسيناه ما ألم به وأقبل على الحياة من جديد بسببنا .

قال أحمد وهو يخرج علبة السجائر من جيبه:

ــ أكبر خطأ عملته هو أني لم أنزل من أمريكا لحظة وفاة أبي ليس من أجل أخذ العزاء، ولكن من أجل معرفة كيف مات أبي؟

انتفضت عينا موسى، وارتعشت أنامله، وكأن عقربًا لسعته وقال:

ــ ماذا تقول؟ أبوك مات ميتة عادية جدًا كما يموت الناس .

نفث أحمد دخان سيجارته أمام وجهه ثم قال:

ــ أمتأكد من ذلك؟

ــ أقسم لك .....

وقاطعه:

ــ لا تقسم، أنا متأكد من أن فيه حاجات غامضة في حياة أبي وفي وفاته لم يكتبها في مذكراته .

اندهش وقال:

ــ أي مذكَّرات؟

ــ لا عليك يا عمي موسى، ولكن أريد أن أعرف مكان مبروك

ــ مبروك ! من مبروك؟

ــ مبروك الذي أهداه أخوك عبد الكريم لوالدي يقوم على خدمته ويرعاه، أين هو؟

ــ تقصد مبروك الأخرس .

ــ نعم، الذي سماه أبي «مبروك الطيب» .

ــ مبروك مات من زمان يا سيادة العقيد .

ــ متى؟

ــ لا أعرف متى بالضبط، ولكنه مات قبل والدك بشهر تقريبًا

أطفأ سيجارته، ووضعها على المنضدة، وانتصب واقفًا مستغربًا وقال:

ــ مات قبل والدي؟ كيف؟

وقف موسى هو الآخر وهو يقول:

ــ أمر الله يا سيادة العقيد .

ــ ولكن أبي كان قد أوصى له ببعض تركته بعد موته .

ــ هذا صحيح، لقد أوصى والدك لمبروك بنصف تركته كلها،وأوصى له بالفيلا كلها ظنا منه أنه سيموت بعد والدك، ولكن الموت كان أسرع

لمبروك من الدكتور شريف وأخلف ظنه وهلك مبروك قبله إثر تعرضه لأزمة قلبية، وكان هلاكه سببًا في موت أبيك، حيث حزن عليه حزنًا مفرطًا وتألم كثيرًا لفراقه وأضرب عن الطعام والشراب، حتى تعب ومرض وشحب لونه واصفر عوده ونحل جسده وغارت عيناه، جئنا له بأفضل الأطباء، وذهبنا به إلى أفخم المستشفيات الخاصة، ولكن والدك كان رافضًا للحياة فمات بعد مبروك بشهر تقريبًا .

ــ نفس الكلام الذي قاله لي عمي راغب لما سألته عن سبب وفاة أبي وكأنكم حافظين كتابا بالنص .

ــ ماذا تقصد؟

ــ أقصد أني غير مقتنع بهذا الكلام وأظن أن هناك سببًا آخر لوفاة أبي .

ــ سبب مثل ماذا؟

ــ طالما أنك قلت نفس كلام عمي راغب الذي حفظه لكم إذن أنت تعرف سبب وفاة أبي .

ــ نحن لا نعرف شيئًا، أنتم تركتم والدك وأهملتموه إهمالًا تامًا ولو كنت موجودًا باستمرار بجنب والدك لكنت عرفت أن هذا سبب وفاة والدك لكنك أهملته، وأنت ابنه وانعدمت زيارتك الوحيدة له في السنة الأخيرة من حياته .

ــ لماذا لم تتصلوا بي؟

ــ أنت لا تحتاج لاتصال من أجل زيارة والدك، كما أن الدكتور شريف لما وجد هذه المعاملة منك رفض رفضًا قاطعًا في أيّامه الأخيرة وأقسم علينا

ألا نتصل بك أو بأمك أو بعمك عزت أو بعمك نبيل، طالما أنكم تركتم الاطمئنان عليه، لقد رفضكم كما رفضتموه .

وكأن دموعًا تترقرق في عيني أحمد وهو يقول:

ــ لكني لم أرفضه .

ــ ماذا تسمي انعدام زيارتك له خاصة في السنة الأخيرة حتى اتصالك للاطمئنان عليه لم يكن موجودًا .

سكت أحمد ولم يجب على السؤال وهز رأسه في ألم وحسرة،ثمَّ خر جالسًا على الكرسي، وجلس موسى هو الآخر، وربت بديه على فخذ أحمد، وقال:

ــ هوِّن عليك يا ابني، ما فات فات، ولا تنظر للخلف، ولا تنبش في الماضي، عش حياتك ولا تلتفت لما مضى، دع الأموات يسكنون بسلام .

نظر إليه، وفي عينيه أسئلة كثيرة تحيره لم تكن كحيرة السؤال الأعظم في حياته: كيف مات والده؟

لديه شك يقترب من اليقين أن والده لم يمت ميتة عادية، وإنما هناك سبب، كان في كلامهم له شيء صحيح وهو سوء حالة والده بسبب موت مبروك بل إن موت مبروك هو سبب موت والده فعلًا، ولكن ليس بالإضراب عن الطعام والشراب ورفض الحياة كما أخبروه، وليس بعد مبروك بشهر بل بأسبوع واحد فقط سبع ليالٍ وثمانية أيام هي مدة حياة الدكتور شريف بعد وفاة رفيق عمره وتوأم روحه مبروك الطيب،الذي عاش معه أكثر من عشر سنوات في حب وإخاء وعطف وحنان حتى أحبه أكثر من نفسه، فكيف يراه يخر أمامه صريعًا وهو يطعمه في فمه ويعيش

بعده أياما وشهورا وسنين؟!

ــ مبروك، مبروك، مبروك ما بك؟ مبروك، مبروك .

لم تنفع المناداة ولا تنفع وقد جاءت ساعته، خر عند موضع قدمي سيده، وخر معه طبق الطعام، انحنى عليه يهزه يحركه يشد شعره، ولا حياة لمن تنادي أو تحرك .

مات مبروك وانتهت مهمته في هذه الحياة عند قدمي سيده المبتورتين صرخ بعظم صوته حتى رج الصوت أرجاء حانوت كلها، تجمع على صراخه أهل القرية، وارتجت الفيلا بالناس الذين أتوا من كل حدب وصوب يشاهدون هذا المشهد البكائي مبروك عند قدمي سيده، وسيده يبكي يولول وينعق يهزه ويحركه دون فائدة:

ـ قم يا مبروك، قم أطعمني، أنا جائع، قم ألقمني الأرز بالشوربة، مبروك يا أخي يا روحي يا شقي العزيز .

ويشد في شعره بعنف كي يقوم له، وهيهات هيهات، فغص بالبوار واشتم رائحة الموت فهلعت عيناه بالدموع تنسكب كأمواج بحر عاتية، وانسابت الدموع من عيون بعض الواقفين،ومن عيون عبد الكريم وموسى اللذين اقتربا من شريف يحيطانه ويربتان على جسده، فما إن وجدهما حوله حتى احتضن عبد الكريم ومال بصدره عليه يشج دمعًا وآهات ولوعة، وبادر عبد الكريم قائلًا:

ــ كلنا لها يا ابن عمي، هذه ساعته، تماسك وتجلد .

وربت موسى بيده على كتفيه وقال:

ــ كل من عليها فان، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

نظر إليهما والدموع كمياه الوادي في عينيه وكأنه يقول لهما بعينيه:

ــ أنتما لم تصابا بمصيبتي، لا تعرفان مقدار خسارتي .

كانت مصيبة انهدت لها أركان وجنبات الفيلا بمن فيها، لم يعد للحياة طعم في ذوق شريف، الموت الآن كالحياة عنده بل إنه رأى أن الموت الآن أفضل له حيث سيرى مبروك مرة أخرى ويلتقي به .

أما الآن فلم يعد يراه يجوب الفيلا محركًا كرسيه بيديه يلف عجلتيه ويدور به هنا وهناك فلا يراه، رفض أن أن يخلف أحدٌ مبروكا فلم يرض بمشورة أولاد عمه أن يأتوا إليه برجل آخر يخدمه أو امرأة تخدمه، رفض أن يحل إنسان آخر محل مبروك في داره وفي حياته، واحتد عليهم بالكلام لما حاولوا إقناعه بالأمر وقال:

ــ لا أريد ذلك لن يخلف أحد مبروكا ولا تلحوا علي بالكلام، أرجوكم احترموا رغبتي وإلا سأقتل نفسي .

نظروا إلى بعضهم البعض راغب وموسى وعبد الكريم، واحترموا رغبته خوفًا عليه وقال راغب:

ــ لن نلح عليك يا دكتور شريف، إذا كانت رغبتك أن تظل بمفردك فسنحترم رغبتك خوفا عليك، وعبد الكريم وموسى ومن عندهم سيقومون على شؤونك من طعام وشراب ولباس وما شابه ذلك، سيكون فقط عندك خفير على باب الفيلا إذا احتجت شيئًا تخبره، وهو يخبر عبد الكريم أو موسى، يحرسك ويعرف طلباتك يخبرهم بها .

نظر إليهم والدموع تزخر بعينيه، وهز رأسه لوعة وقال:

ــ لن يكون لي طلبات بعد الآن، وسترتاحون مني ومن طلباتي .

أصابتهم كلماته بالانزعاج وخاصة راغب الذي نظر إليهم وإليه ثم قال:

ــ ماذا تقصد من ذلك يا دكتور شريف؟

نظر إليه وهو يضغط على شفتيه حزنًا والدموع صفان أسودان على خديه ثم قال بصوت متهدج متهالك:

ــ لا أقصد شيئًا .

انصرفوا من حوله وتركوه في الحديقة كما طلب، وتركوا الخفير أمام باب الفيلا يرقبه، وقد أوصى بعضهم بعضًا بقوة على شريف وعلى الاهتمام به خاصة في مثل هذه الأيام التي أصيب فيها باليأس والقنوط.

لم يعد يشعر بطعم للحياة فقد مات من كان يحبه ويرعاه بصدق وإخلاص، فما معنى الحياة من دونه؟ بل في موته ربما لقاء به.

ظل يحدث نفسه ويجول بفكره هنا وهناك حتى باتت فكرة الموت مسيطرة عليه، ولكن لا يعلم متى موته فربما يعيش أكثر ممن حوله، ولا مناص من ذلك إلا بالانتحار، فهو السبيل الوحيد الآن لإنهاء كل هذا اليأس والقنوط والمتاعب والهموم التي لاصقته منذ موت مبروك، ولكن كيف يموت؟ ما السبيل للخلاص من الحياة؟ وأي طريقة تنهي ذلك؟

بالسكين؟

بالرصاص؟

بالشنق؟

بالتردي من على سطح الفيلا؟

كل هذه طرق مشكوك فيها فربما ينقذونه ويسعفونه فيعيش والأهم من ذلك أنه لا يحب الألم ولا يريد أن يتألم في موته، يريد الخلاص بسرعة فاهتدى عقله إلى «السم» الموجود في مخزن حديقة الفيلا، والذي كان سلاح مبروك في القضاء على الفئران والحشرات التي كانت تغزو الحديقة والفيلا .

هوى ببصره على مخزن الحديقة وعلق به، ثم تحول ببصره ينظر إلى الخفير «خليفة» الجالس على سلم الفيلا يتابع بين شرب الشاي ونفث دخان السيجارة غير عابئ بما حوله لكنه هبّ مسرعًا واضعًا كوب الشاي بجواره لما نادى عليه «شريف»:

ــ خليفة .

هبّ منتفضًا مذعورًا وهو يقول:

ــ حاضر يا دكتور شريف، تحت أمرك .

نظر إليه شريف وهو واقف أمامه يلهث من السرعة :

ــ ماذا تريد يا دكتور شريف؟

نظر شريف إلى المخزن وقال وهو يشير له نحوه:

ــ أريد أن أدخل هذا المخزن، أريد كتابًا قديمًا فيه، بحثت عنه فلم أجده، فربما يكون هناك .

نظر خليفة إلى المخزن ثم قال:

ــ تحت أمرك يا دكتور شريف، هل هو مفتوح أم مغلق؟

ــ المفاتيح كلها معلقة على مسمار في الصالون أسفل صورة أبي، مبروك هو الذي أعد لها هذا المكان لتكون في متناول يدي ويده، ادخل الصالون الذي وضعت لي الطعام والشاي فيه في الصباح، ستجد صورة كبيرة صورة والدي أسفلها ستجد المفاتيح معلقة على المسمار أحضرها وتعالى أدخلني المخزن أبحث عن الكتاب.

كانت المرة الرابعة التي يدخل فيها المخزن ثلاثة منها مع مبروك والمرة الرابعة والأخيرة بمفرده، سهل الأمر عليه في البحث لأنه كان يعرف مكان السم الذي كان يستخدمه مبروك في الفتك بالفئران وحشرات الحقول، كان في قارورة من البلاستيك داخل كيس بلاستيكي أسود داخل كرتونة كتب صغيرة، طلب من خليفة أن يحمل كرتونة الكتب إلى غرفة نومه، وأن يضعها على سريره حتى يسهل الحصول على الكتب؛ ليقرأها قبل أن ينام حملها خليفة في صمت وصعد بها، وهو يغني بصوته الرقيق العذب رغم ضخامة جثته:

تحت الشجر يا وهيبة يا ما كلنا برتقان
كحلة عينيك يا وهيبة .. جارحة قلوب الجدعان
والليل بينعس على البيوت وعلى الغيطان
والبدر يهمس بالسنابل والعيدان

وضعها على السرير وهو لا يدري ماذا يحمل في هذه الكرتونة المغلقة بلاصق شفاف؟ أخذ يجول ببصره هنا وهناك في غرفة نومه، انتبه للسراحة فوقف يعدل طاقيته ويتأمل في نفسه وجاذبيته، يغمز بعينه ويلف شنبه

ويقول:

ــ الله عليك يا ولد يا خليفة، سبع من يومك

ثم انتبه إلى شباك الغرفة المطل على الحديقة، فاتجه ناحيته ونظر منه فوجد شريف جالس على الكرسي يتأمل في الحديقة ينظر في جنباتها كأنه يودعها .

هزّ رأسه حسرة وخرج إليه.

كان الليل قد هبط بظلاله وبظلامه على الكون يغمش العيون واصطكاك الرعد يهز القلوب، وبرق يخطف العيون وجو ينذر بسيول من الأمطار، والناس كل يترقب الجو في منزله تحت الألحفة والأغطية وحول مواقد النيران يستدفئون كخليفة، الذي أشعل نارًا في الحديقة وجلس حولها يستدفئ ويعد الشاي الشهي عليها، بينما شريف كان ممدًا على سريره وبجواره طعام العشاء وكوب من العصير من بيت ابن عمه عبد الكريم، وكان شريف قد شرب نصف كوب العصير المشوب بالسم القاتل، فلم يستطع إكمال الكوب، فقد كان السم يسري في جسده يهريه ويفت كبده .

ظل يصرخ ويصرخ ولكن لم يسمع صراخه في هذا الجو الرهيب مع سقوط الأمطار الغزيرة، وانحلال عقد السماء وانهمارها بالمطر كالقرب، فخليفة كان قد هرب بهطول الأمطار وانطفاء النيران،ولاذ بحجرته في الحديقة مختفيا تحت لحافه السميك .

كان صراخه يتعالى، وهو يضغط بيديه على بطنه التي تعتصر حتى ارتخت مفاصله وأنامله، ومال جسده إلى الوراء مستسلمًا للموت الذي يجوب بدنه، وتوقف صراخه وشخصت عيناه، وفاضت روحه إلى

بارئها...

تلقت حانوت صدمة موت شريف وتلقت عائلته في القرية خبر تلك الفاجعة بقلوب حزينة تعيسة من أولئك أبناء عمه: راغب وعبد الكريم وموسى وأبناء أخواله وآخرون ...

كانت حجرته مرتجة بأبناء أعمامه الثلاثة ومعهم خليفة، شك راغب في الأمر بحسه القانوني وظل يرمق خليفة السائح في خوفه أمامهم ورأسه مطأطأة في الأرض .

قرَّب راغب كوب العصير من أنفه واشتمه، ثم نظر إلى الكرتونة في وسط السرير ونظر لخليفة وقال:

هذه الكرتونة التي أتيت بها من المخزن؟

نظر خليفة من طرف عينيه، وقال بصوت متهالك:

ــ نعم هي ولكني والله .....

قاطعه عبد الكريم:

ــ اخرس يا كلب لا تعد تتكلم وحسابك معي كبير .

فتح راغب الكرتونة وأفرغها على السرير كان فيها عشرة كتب وكيس أسود فارغ وقارورة بلاستيك وورقة وقلم

نظر إلى محتويات الكرتونة، وأول ما لفت نظره الورقة والقارورة، أمسك الورقة قرأها فجحظت عيناه وأخذ نفسًا عميقًا وكأن عقربًا لسعته ثم نظر لأخويه اللذين اندهشا من نظراته .

وضع الورقة في جيبه وأمسك القارورة بالكيس وفتحها وشمها ونظر

بداخلها ثم هز رأسه ونظر إلى أخويه ومن في الحجرة اللذين نظرا إلى بعضهما وإليه في دهشة .

اقترب راغب من خليفة وقبض بكلتا يديه على تلابيبه حتى ازرق وجه خليفة وكاد أن يختنق، وقال بصوت عنيف:

ــ تعرف لو أحد علم شيئًا عما حدث هنا سأقطع لسانك وأخلع عينيك، وأجعلك عبرة لمن يعتبر .

أحس عبد الكريم بأن راغب في قمة غضبه، وأنه قد يدمر حياته لو فطس خليفة بسببه، فنزع يديه عن رقبة خليفة في هدوء وقال له:

ــ هدئ من غضبك يا أخي .

ثم نظر إلى خليفة وقال:

ــ خليفة عاقل، ويعرف جيدًا لو تكلم بكلمة ماذا سيحدث له؟ صح يا خليفة؟

ابتلع خليفة ريقه وقال:

ــ أنا غير مستغن عن حياتي، ولن أتكلم بحرف واحد .

اقترب موسى منه وقال:

ــ نحن نعرف ذلك، الآن اخرج من هنا وانتظر خارج الغرفة ولا تدخل أحدًا علينا مهما كان .

ويخرج خليفة في قمة رعبه وخوفه ينفذ الأوامر .

والتف الاثنان عبد الكريم وموسى حول راغب الذي نظر إليهما وهو يضغط على شفتيه، فقال عبد الكريم:

ــ ما الأمر يا راغب؟ ماذا حدث لابن عمنا؟

هز رأسه وزفر وشهق وقال:

ــ الدكتور شريف ابن عمنا .....

وابتلع ريقه وتنحنح وجلس على أقرب كرسي وقال:

ــ الدكتور شريف انتحر

ـــ ماذا؟!

قالها أخواه وهما في قمة الاندهاش والتعجب، وقد اتسعت عيونهما من فرط المصيبة

قال عبد الكريم:

ــ كيف ذلك؟ ولماذا انتحر؟

قال راغب:

ــ وكأني كنت متوقعًا شيئًا يحدث لشريف بعد وفاة مبروك، لكنني لم أتوقع أبدًا أن ينتحر .

اقترب موسى منه وقال:

ــ لماذا أنت متأكد هكذا من أنه انتحر؟

ــ أخرج الورقة من جيبه ورفعها إليهما وقال:

ــ هذه الورقة بخط شريف .

وقرأها عليهما:

«أنا شريف محمد الوحيدي هذه آخر لحظات في حياتي أكتب لكم يا أبناء عمي راغب وعبد الكريم وموسى، فأنتم كل عائلتي التي أعترف

بها أما غيركم فلا أعترف به، بعد موت مبروك لم يعد لحياتي معنى ملكني اليأس والقنوط من كل شيء، فلمن أعيش وأنا نصف إنسان فإلى متى ستظلون تتحملون أعبائي؟ فقررت أن أترك الحياة برغبة مني وبإرادتي، فلا تتهموا أحدا بموتي وخاصة خليفة، فأنا الذي طلبت منه أن يحمل كرتونة الكتب والسم دون أن يدري بمحتوياتها، فلا تظلموا أحدًا، سأضع قلمي وسأشرب السم تاركًا هذه الحياة اللعينة، وهذا العالم القاسي

ملحوظة:

ابن عمي راغب أرجو منك أن تنفذ وصيتي وستجد أن فيها بندًا قد ألغي بموت مبروك فلا ينفذ، مع إضافة بند جديد الآن وهو أرجو أن تدفنوني دون أن تعلموا أحدًا من أخويا عزت ونبيل أو ابني الجاحد، وأخيرًا أؤكد على بند مهم أنت تعلمه يا راغب لا تنس دفني في تابوت »

اغرورقت عيونهم بالدمع وقد خرا على السرير جالسين

وقف راغب وقال:

ــ لا داعي للدموع الآن، فيه شيء مهم جدًا.

انتبهت عيونهم له وهو يكمل:

ــ يجب ألا يعلم أحدا بما حدث يجب ألا يعرف أحدًا أن الدكتور شريف مات منتحرًا، وهذا يظل سرًا بيننا نحن الثلاثة فقط حتى أقرب الناس لنا أو لشريف لن يعلموا ذلك مهما حصل، شريف مات ميتة طبيعية، لا نريد فضائح لنا أو لأخويه وابنه، فهم في مناصب سيادية خطيرة، وإذا شاع هذا الأمر ستحدث فضائح لعائلتنا كلها، الدكتور شريف مات ميتة طبيعية،

ولن ندع طبيبًا يكشف عليه سنأخذ تصريح الدفن من طبيب مستشفى حانوت دون أن يكشف عليه، وهذه مهمتك يا عمدة، هل فهمت يا عبد الكريم؟

يهز عبد الكريم رأسه بالموافقة

ثم يقول راغب لموسى:

ــ وأنت يا موسى أزل كل هذه الأشياء من هنا أحرقها هذه الكتب وهذا السم وهذا القلم الذي عليه بصماته .

يقف موسى ويقول:

ــ حاضر يا أخي ولكن الورقة هذه التي معك هل نحرقها؟

ــ لن نحرقها ستظل معي في أمان .

يقف عبد الكريم ويقول:

ــ هل ستنفذ وصيته؟

ــ أجل يا عبد الكريم، وصية ابن عمنا لابد وأن تنفذ .

ــ يعني لن تخبر أخويه عزت ونبيل وابنه أحمد؟

يصمت راغب كأنه يفكر وهو ينظر إليه وإلى موسى، يقول موسى:

ــ أنا أرى أن نخبرهم فهو أخوهما وأبو أحمد ؟

ينظر راغب لعبد الكريم يجده يهز رأسه موافقة لكلام موسى

فيقول راغب:

ــ سنخبرهم، وربنا يسامحنا على خلف هذا البند في الوصية، لكن كل الوصية ستنفذ

يقول موسى:

ــ لكن موضوع التابوت هذا جديد علينا، فكيف سندفنه في تابوت؟! ومن أين لنا بتابوت الآن؟ فهل سنؤخر دفنه لحين الانتهاء من إحضار التابوت؟

ــ التابوت جاهز عندي، الدكتور شريف أعلمني بهذا الأمر لما كتب الوصية، وألح علي في ذلك، وطلب مني أن أبدأ في إعداده، وبالفعل صنعه نجار في القاهرة، واضطررت أن أخفيه بعيدًا عن زوجتي وأولادي في شقتي الأخرى في مصر الجديدة، موسى سأعطيك مفتاح الشقة وتأخذ سيارة وتذهب تحضره ستجده مع كراسي الأنتريه مغطى مثلها بقماش أبيض.

ويوجه الكلام لعبد الكريم:

ــ وأنت تأتي بتصريح الدفن من طبيب المستشفى، وتعمل نعي كبير لابن عمنا شريف، وتعد تجهيزات الجنازة والذبائح وصوان العزاء والمقرئين وغير ذلك، أما أنا فسأتصل بأخويه وبابنه وبزوجته

كانت مهمة موسى أن يأتي بالتابوت من شقة أخيه وهو حائر من هذا الأمر الغريب عن عاداتهم في الدفن، فمنذ متى وموتانا يقبرون في توابيت؟

ظل يسأل نفسه وهو يتفحص هذا التابوت العجيب بعد أن أزاح الغطاء من عليه: كيف سيدفن شريف هنا؟ ولماذا اختار أن يدفن في تابوت؟ لماذا لا يدفن مثل طريقتنا المعتادة؟ فهل أقنع أخي راغب أن ينثني عن هذا الأمر؟ أظن أنه لن يوافق،وسينفذ تلك الوصية.

وظن موسى أنه أقنع ابن ابن عمه أحمد بأن والده مات ميتة طبيعية، ولكن أحمد لم يقتنع بذلك، وقال لنفسه بصوت خفي:

ــ أنا عندي ظن يقترب من اليقين أن أبي مات منتحرًا مثل أمي، وأن موسى يخفي عني أشياء كثيرة لا أعلمها، ولم يذكرها أبي في المذكَّرات .

تعجب موسى من صمت أحمد وسرحانه وذهوله المفاجئ فقال:

ــ أحمد، أحمد يا ابني .

انتبه أحمد إليه وهز رأسه قائلًا:

ــ على العموم أنا عندي يقين عجيب أنّ هناك سرا في موت أبي، وأنت تخفي ذلك عني .

ثم وقف وهو يقول:

ــ وسوف أكتشف هذا السر وأعرفه .

وخرج أحمد يجر أطراف الندم على ما فرط في حق أبيه، وإن لم يحزن على وفاته، لكنه أحس بالتفريط والتقصير في حقه وإن كان يشك في أبوته، ولا يكاد يصدقها تذكَّر ذلك وهو ممدد على السرير مستندًا على ذراعيه، فدبت فيه مرة أخرى أفاعي الحنق والكره والغيظ من أبيه وبات يتقلب على جمر الثأر من والده، أخذ يتقلب على مراقد القلق والفكر، يتقلب يمينا وشمالًا محاولًا أن يسكت شيطانه، حتى هبّ جالسًا على السرير،قد التهبت جمرة الغيظ في صدره، ونطقت ترجمة الكره عن عينه غالب بغضه وهو يغلبه، وكظم غيظه من أبيه وهو يشغله فاضطرب واضطرم، واحتد واحتدم فأخذ فأسًا من حديقة والده وكشافه اليدوي ودأل ليلًا يحث السير

ويسندر فيه قاصدًا المقابر مجيبًا نداء نفسه للزيارة الثانية قبل أن يرحل من القرية إلى المدينة .

كان الليل قد كلح بوجهه، وكشر عن أنيابه فاختفت نجومه واحتجبت في سرادق العتمـة، وغـاب البدر، ولبس الجو مطرفـه الدجوجي، وباحت الريـح بـأسرار المطر، وهدرت السـماء وارتجزت نواحيها، ولمعت سـيوف بروقهـا تخطـف الأعـين الثاقبـة، وتوجب القلـوب السـاكنة، وتصاعدت قهقهات الرعد تفتق الرواسي،وتفدغ الأعضاء، وتذيب الصخور الصلدة.

كانت ليلة رعب وغيوم وغموم، كما شاء الحسود، ورغم غصص هذه الليلة ثابتة الأطناب طامية الغوارب طامحة الأمواج، لم يرتج ولم يرتعد أو يرتجع، وتقدم نحو مقابر عائلة الوحيدي يزرف في سيره، والكشاف في يده اليمنى، والفأس في اليسرى .

وقـف أمـام قـبر والده منـيرًا إيـاه بالكشـاف يقـرأ اللافتة الرخـام، ثم انثنـى يضع الكشـاف على الأرض مسـلطًا على القبر وانتصـب والفأس في يـده واعتدى اعتـداء قبيحًا على قبر أبيـه، وهذّ فتحته التـي كانت موصدة بالحجارة وفصم اللافتة المسطور فيها اسم والده الراحل .

ونظر بالكشاف داخل القبر فوجد تابوتًا من خشب، وضع الكشاف على الأرض، وجبذ التابوت خارج القبر، نفضه ببصره وركزه على قفل التابوت الحديدي، الذي بات مخبأ للصدأ، ورفع يده بالفأس، وانقض على موضع القفل، حتَّى تهشم الموضع عن دائرة تحيط بالقفل، وسقط القفل على الأرض .

ورفع المجرم باب التابوت، ونظر بكشافه داخله، فلم يرَ سوى حفنة من تراب وبعض الشعور، وكان هذا ما بقي من والده .

مد يده وعبث ببقايا والده، ثم رفع يده وهي تحمل حفنة من التراب، وقال:

ــ هذا هو ما بقي منك يا أبي، تراب، ولكن ما هذا؟

لقد رأى في التراب عظمة لطيفة مثل حبة الخردل.

نفض يده من التراب، وأمسك بالعظمة يقربها من عينيه وأسجد ببصره وشفنها في تعجب ثم هز رأسه وقال:

ــ هذه العظمة إذن عجب الذنب، الذي يبقى من الإنسان بعد فنائه والذي يركب منه يوم القيامة .

ويضحك بصوت تتعالى نبراته وأصداؤه بين جنبات القبور الصامتة، ثم يتوقف عن الضحك ويقول:

ــ هذه إذن البذرة التي سيبعث منها أبي، هذه بذرة أبي، سبحان الله !

ما أحقر هذا الإنسان اللعين، يظلم ويتجبر ويتكبر ومآله في هذه الدنيا الفناء، ولا يبقى منه سوى هذا الشيء العجيب .

وحرك عجب الذنب في يده وخاطبه قائلًا:

ــ أأنت أبي الذي فعلت وفعلت وظلمت وافتريت، حقًا ما أحقر الإنسان ! وما أحقر هذه الدنيا !

لم ينتبه لعبوس تلك الليلة السوداء وتكشيرها عن ناب الزمهرير إلا عندما أرخت السماء عزاليها وأخذت سحائبها الطافية في جوها تمد من

الأمطار حبالًا وترسلها أمواجًا والأمواج أفواجًا .

فنظر حوله ليرى مكانًا يتوارى فيه من المطر الأجش، فلم يرى سوى فتحة قبر والده، فدخله مسرعًا، ولم تمر دقيقة حتى خرج مذعورًا خائفًا، فكادت نفسه تطيح، وروحه تسري بها الريح، لما وجد القبر عليه كفة حابل أو أشد تقاربًا، وحلقة خاتم أو أتم تداخلًا، فطاح روعه فرقًا وطار قلبه شرقًا وتراجع للخلف في رعب، وهو ينظر لقبر أبيه ونفسه يخرج ويدخل ودار ببصره على القبور الصامتة وشخص ببصره إلى السماء المخنوقة بالغيوم، بعدما صمت مطرها عن الحديث، ولكن قد عاد صخبها ولهبها ببرقها منذرين بمعاودة المطر الكلام القاسي .

خفض بصره ونظر داخل التابوت فوجد تراب أبيه قد أغرقه المطر، فصار طينا تعجب من ذلك، وحرك شدقيه وأمال عنقه وعجب الذنب في يده حدجه ببصره ثم انثنى وغرسه في طين والده الراقد في التابوت، كأنها بذرة غرسها في أرض أغرقها الماء .

ثم أرجع باب التابوت إلى مكانه وتركه بدون قفل، ودفعه داخل القبر ثم قام برص بعض الحجارة سادًا فتحة القبر، وإن لم ترجع كما كانت ولكنها سترت فوهة القبر .

ثم أخذ عدته التي جاء بها الفأس والكشاف ونفض القبور بعينيه، ثم سار بينها وقلبه طائر بجناح الوجل، ولبه قد طاش في قبضة الوهل، وقف فجأة ينظر حوله وهو ساد أنفه بإبهامه وسبابته إثر شمه لرائحة أنتن من هدهد ميت مكفن في جورب عفن تنبعث من أحد القبور حديث ساكنه،

وقال:

ــ راحة الموتى ! ما هذه الرائحة العفنة؟! لرائحة حمار عفن أو خنزير غفر نتن أطيب من هذه الرائحة، ما أنتن وأقذر وأعفن الإنسان في حياته وبعد مماته !

وحرك قدميه، وانصلت في سيره، وهو خائف مرعوب ترتعش قدماه، وترتعد فرائصه، ويرتجف فؤاده، وتهتز يداه بما تحمله حتى خرج من منطقة الموتى الساكنة وأهطع نحو فيلا والده .

دخل الفيلا وهو مذعور أوصد بابها وراءه وهرع نحو حجرة والده الخاصة ونفضها مرة أخرى، ثم ركز بصره على مذكَّرات أبيه الراقدة على مكتب أبيه، ودلف نحوها وشحنها في حقيبته الصغيرة التي جاء بها إلى القرية .

وخرج مسرعًا من تلك الفيلا الملعونة كما وصفها وركب سيارته، وانطلق بها نحو مسكنه الثابت في القاهرة، وكله حماس ورغبة دائبة في إنهاء ما بدأه والده، وليته لم يتحمس ذلك الحماس القاتل ولم يرغب تلك الرغبة المدمرة .

(7)

الأسرار القاتلة

انطلق من نفسه القذرة الخبيثة، وجسده الوسخ ينشر أسرار أبيه، ويهتك أستاره التي ظلت مدفونة في الورق أكثر من عشرين سنة، ويفتق الأحجبة الصماء التي طلت أجزاء كبيرة من حياته،وحياة أبيه الذي دفن وتحلل .

وبدأ بأولى تلك الصدمات عليه، والتي استكت لها أعضاؤه وأطارت قلبه، وأطاشت عقله وأخفضت ناظره وقذته، ورمت بحجر صيخود في رأسه فتهشم عقله وجسده كله .

رقى درجات سلم مديرية الأمن وفي يده جزء مصور من مذكرات والده، ودلف إلى مكتب عمه اللواء نبيل الذي استقبله استقبالا حارًا، وقام إليه من خلف مكتبه يحضنه ويقبله وهو يقول:

ــ أهلًا، أهلًا بابن أخي، أين أنت من زمان؟ لم أرك منذ فترة اتفضل اجلس .

فجلس معه وهو يقول:

ــ ولكني أسمع عنك أخبارًا جيدة، لقد نورت مديرية الأمن يا ابن أخي العزيز .

شفنه في استهزاء وقال في برود:

ــ ولكني لست ابن أخيك .

ذعر اللواء نبيل من تلك الجملة، وأرجع رأسه للخلف قليلا وقال مندهشًا:

ــ ماذا؟

ــ قلت لك أنا لست ابن أخيك، وأنت لست عمي .

وقف نبيل مذعورًا غاضبًا وهو يصيح به:

ــ ماذا تقول؟ أجننت يا أحمد؟

ــ أنا لست مجنونًا، هذه هي الحقيقة .

ــ أي حقيقة؟ أتسمي هذه الهلوسات والهراءات حقيقة؟

فانفطرت شفتاه عن ابتسامة مستفزة ثم قال:

ــ إنها الحقيقة، وليست هلوسات.

جن عمه نبيل وصلق به مفزوعًا وهو يبتلع ريقه:

ــ أي حقيقة هذه التي تقول؟ كيف لا تكون ابن أخي وأنا لست عمك؟!

صمت قليلا ووقف تجاهه وابتسم وقال:

ــ لأنك أخي .

صعق وأسكت واضطرم واندهش وشخصت عيناه وكأنه الموت ثم

قال:

ــ أخوك؟! .....

ثم عاد بفكره لعله يجد مخرجًا فقال:

ــ تقصد أخاك في الله .

ــ أنت أخي في النسب وأخي في الله .

نعَّر به وهو يمسك بتلابيبه يخنقه:

ــ ماذا تقول يا قذر؟

أفلت نفسه من قبضته بدفع ذراعيه بعنف ثم قال، وهو يعدل لياقته:

ــ أقول أنك أخي، أبونا واحد الدكتور شريف محمد الوحيدي

نعق ونعر وصلق وهزم به:

ــ ماذا تقول يا أخس من كلب يا دنيء؟

ــ أنا أقول الحقيقة، أنت أخي من صلب أبي شريف، ولست من صلب جدي محمد الوحيدي .

قد طما الغضب، وعلا في وجنتيه حتى احمرت خدوده من الغليان:

ــ أنت مجنون، معتوه، ومكانك الحقيقي هو مستشفى المجانين

ــ إن لم تكن تصدقني فاقرأ هذه الأوراق إنها اعترافات أبي الخطيرة كتبها بنفسه بيده، وهذا هو خطه .

ورمى بالأوراق على المكتب أمام عيني نبيل، رمقها اللواء نبيل وهو مذهول متسع العينين مندهش، ترتعش أنامله وهي تدلف نحو الأوراق ترفعها أمام ناظريه يقرأ ما فيها بعينيه .

فيصاب بحالة من الوجوم، ويغبر وجهه، وينتفض قلبه وارتعشت أنامله وأعضاؤه، حرك شفتيه ولكنهما لم تلتقيا بالكلام ولم يثبت باله بخطر ما قرأ، ولحقته روعة، وملكته لوعة وخنقه يأس، وحشرجت نفسه، وشاهدها وهي تخرج، ولقي روحه وهي تعرج، بعدما أتى الناعي بانهدام الطود المنيع، وزوال الجبل الرفيع، فانقض على الكرسي، وقد صعقته الصدمة القاتلة، ومسَّته يد العار الغادرة.

قد نعته السماء صائحة، والأرض نائحة، فغارت عيناه، وتصدع فؤاده، ورشحت عيناه بالدم، وقال:

ــ هذا كذب وافتراء، هذا بهتان عظيم وإفك مبين .

ــ لا تنكر الحقيقة الواضحة وضوح الشمس، السافرة سفور الصبح .

ــ كيف؟ كيف؟!

وصك مكتبه، وهبّ مهزوزًا واقفًا، ورمى بالأوراق في وجه أحمد فتبعثرت حوله، ويصيح نبيل، وقدماه لم تعد قادرتين على حمله، ويشير إلى أحمد بيده:

ــ لا، لا، أنت كذاب مبين، وأبوك فاجر كذاب أفاك فاسق، اخرج من هنا يا أقذر من رأت عيني، اخرج قبل أن أقتلك .

ورفع مسدسه من على مكتبه ووجهه نحو أحمد، وهو يصرخ فيه ناعقًا:

ــ اخرج يا كلب قبل أن أسيح دمك، وأفتت أعضاءك .

رمقه أحمد ببرود وابتسم، وانثنى يلم ويجمع تلك الأوراق المبعثرة، يضعها فوق المكتب ويبتسم ويقول:

ــ سأدع لك هذه الأوراق عندي منها نسخ كثيرة، اقرأها بهدوء

يهزم به كالرعد:

ــ اخرج يا كلب .

يهز أحمد رأسه ويقول:

ــ لو كانت أمك مازالت حية لأكدت لك ذلك .

زعق به واقترب نحوه ودفعه في صدره وهو يصرخ به:

ــ اخرج يا قذر من هنا قبل أن أفتك بك .

أرشقه ببصره وأسف النظر إليه، وخرج بعدما ألهب الفتنة وأثقب جمرها، وأرث نارها بإظهاره مكنون سر أبيه، وإبدائه كوامن شره التي اغتالت نفس عمه نبيل، وأطاحت بلبه، فملكه الذهول وغشيه الوجوم، واستطارته الصدمة، وغمر فؤاده الوجل، وأضعف يديه الوهل، وأخذت مبانيه تنتقض، ودعائمه تتقوس، وزناده يصلد، وسطوته تركد .

وهب واقفًا منزعجًا من مكانه بقلب هلوع، وروع مروع، أحس قرب الموت،وضعف الجأش، واضطراب حياته وتهاوي مصيره، أمام عينيه كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر.

تقهقر للخلف ولصق ظهره بالجدار، وقال:

ــ أنا ... ابن زنا، لاااااا

وأطلقها صرخة مدوية، استكت لها مسامع من سمعها في مديرية الأمن، وارتجت أركان المكان كأنه زلزال .

لم يكن صوته الذي رجّ أنحاء مديرية الأمن بأقوى من زفير النار الذي

يصرخ بداخله، شعر بأن النار تحيط به من كل جانب ودخانها قد أعمى بصره، فدون أن يشعر اتجه بسيارته نحو حانوت حيث ترقد والدته في حضن القبور .

لم يمر على أفراد عائلته فلم يعرف أحد بحضوره، بل دلف بسيارته نحو المقابر، وخزل نحو قبر أمه «نادية» يجر ذيول العار والخزي، وفي يده زجاجة خمر .

وقف أمام القبر وقدماه ترتعشان وكتفاه مدليان على صدره، وقلبه يجب وجيبًا، أحدّ النظر إليه، وهو يحاول أن يثبت وأن يتماسك، وخاطبها قائلًا:

ــ ما الحقيقة يا أمي؟ أنا ابن من؟ هل أنا ابن محمد الوحيدي كما هو الحال في بطاقتي وشهادة ميلادي وكما هو معروف للناس جميعًا أم أنا .... (ويزفر من البكاء ودموعه تغسل خديه) أم أنا ابن أخي شريف كما قال ابنه السافل، وكما ذكر والده في مذكَّراته القذرة لما سألك من والد الطفل؟ فقلت: أنت؟

هل هذا صحيح؟ أم أن هذا كله كذب وافتراء وإفك مبين صادر من كذاب فاسق كابنه الفاجر الداعر، تحدثي، ردي عليّ، أنا ابن من؟ هل أنا من صلب أبي الذي دعيت به أم أني من صلب أخي القذر من زناه بك؟

وينهار بنيانه ويخر جالسًا أمام القبر، وهو ينوح على حاله يخاطب أمه التي صارت رميمًا:

ــ تكلمي،لماذا أنت صامتة؟ هل أنا ابن شرعي لأبي أم ابن زنا من

أخي؟تكلمي

ويحدق في القبر، ويضغط على شفتيه ودموعه تلف شفتيه فيعاود يكلمها:

ــ صمتك يؤكد قوله، تكلمي، اصحي ردي علي ثم ارجعي مرة أخرى للتراب، هوني عليّ ألمي وخففي عني يأسي، أنا .... أنا ابن من؟ تكلمي أرجوك، أنا أنتهي من الداخل وأذوب، من أبي؟ هل هو زوجك محمد الوحيدي والد شريف أخي أم والدي هو شريف بعد أن زنا بك؟

يسند ظهره للقبر، ويمد رجليه ويرفع الزجاجة يتجرع منها جرعة ثم تتراخى يده بها ويقول:

ــ لقد عشت عمرًا طويلًا معتقدًا أني من صلب محمد الوحيدي، لم أتصور أبدا أني سأكون ابن زنا، ومِن مَن؟ من ابن زوجك الذي عشت عمري، وأنا معتقد أنه أخي، لم أتصور أبدا أنه سيكون أبي !

ولكن لماذا؟ لماذا ارتكبت هذه الفاحشة الشنعاء والجريمة النكراء؟ لقد كنت بمثابة أمه لماذا زنيتما؟ أم أنه هو الذي أغراك وأغواك؟ من المسؤول أنت أم هو أم أنكما معًا أم زوجك الضعيف أم كلكم جميعًا مسؤولون عن ذلك؟

ويميل بصفحة وجهه الأيمن للقبر، ويقول ودموعه تتساقط كحبات الرمل على الأرض:

ــ تكلمي من المسؤول عن هذه الجريمة البشعة؟

ثم ينظر أمامه وعيناه تلمعان بالذل والهوان ويقول:

ــ لايهم أن أعرف من المسؤول الآن، لم يعد ينفع الكلام، لقد متم جميعًا وتركتموني وحدي أعاقر عاركم وأدفع ثمن جريمتكم الشنعاء، وأحمل الذل والهوان والعار على كاهلي وحدي .

لقد قضيتم عليّ وعلى مستقبلي ومستقبل أسرتي، قد وردت من سوء الظن أوخم المناهل، أصبحت لا أستطيع أنقل رأسي ولا أجر ظلي، ويد المنية تقرع بابي، وصرت حليف عار يبريني بري المبراة للقلم الرصاص وينقصني نقص الأهلة، ويوسعني مرضًا، لم يعد لي مكان في الدنيا، فأنا عار، والعار لابد من استئصاله واجتثاثه.

تأصلت فيه رغبة الانتحار، وثبتت بعدما عاوده الشيطان، يلقي على مسامعه عبر الهاتف حديث السفالة والقذارة ويناديه بـ «يا أخي»، يتفصد جبينه عرقًا وقال وهو يزفر:

ــ أخو من يا قذر؟

ــ أنت أخي، أرجو أن تكون قد تأكدت من الأمر، فأنت أخي ولست عمي كما تظن ويظن الناس، ويجب أن يعرف الناس حقيقتك، وينشر هذا الكلام فتفضح على الملأ .

ــ لقد دمرتني يا قذر .

ــ أمك زانية، زنى بها أبي وكانت النتيجة أنت، وأنت الذي يجب أن يدفع الثمن يا سيادة اللواء .

ــ أمي أشرف منك ومن أبيك وأمك يا فاجر.

ــ أمك زانية، وأمي أيضا زانية وسحاقية في نفس الوقت، أسوأ وأقذر

من أمك الزانية، فلا داعي للتباهي، والتفاخر فأمي مثل أمك، ولكني لست مثلك، فأنا أتعامل مع أموري ببرود شديد ولامبالاة، أم أنت فتتعامل مع أمورك وحياتك بنار حامية سوف تصطلي بها لما يعلم العالم كله حقيقتك قريبًا جدًا .

وضع الشيطان سماعة التليفون، بعدما نفخ في سحره ومناخره وضرب بالأسداد بين أوائل أمره وأواخره، وزين له الرغبة في الهلاك حتى شيط لحمه ودمه، فاستجاب لدعائه وندائه، فتهادى نحو حجرته وأرتج الباب عليه بإحكام وتجرع كأس خمر فدبت فيه الكأس دبيب النار في الفحم .

وتوالت الكؤوس تفرغ في فمه وتتواتر حتى تمشت الخمر في عظامه، وترقت إلى هامته، وماست في أعطافه، ومالت بأطرافه، ومال على مكتبه يفتح أحد أدراجه ويخرج منه مسدسه الميري .

أسف النظر إليه، وانتصب واقفًا وهو يرتعش، ونظر إلى صورته عندما كان طفلًا صغيرًا مع والده، ثم إلى صورة أخرى، وهو بزي الشرطة أثناء تخرجه من كلية الشرطة .

وظل يحدج صورته هذه بينما يده ترتفع بالمسدس حتى رأسه، فوق أذنه اليمنى، ويده ترتعش ونظره معلق بصورته الرسمية، وتضغط سبابته على الزناد وتنطلق رصاصة تخترق رأسه وتعبر من الجانب الآخر .

يقع المسدس على الأرض بينما يتهاوى جسده على الأرض، فينقض كالجدار غرقان في دمه .

كانت نازلة هائلة هزت مصر كلها أعلنتها الصحف القومية والخاصة

بعناوين مختلفة أبرزها:

«انتحار مدير أمن في ظروف غامضة»

«ما السبب وراء انتحار اللواء نبيل محمد الوحيدي»

«قتل اللواء نبيل الوحيدي هل هو انتحار أم اغتيال»

«هل هناك دوافع سياسية وراء مقتل اللواء نبيل الوحيدي»

وغير ذلك من العناوين التي نشطت الصحف والمجلات العربية والعالمية في إبرازها، فقد وجدت وجبة دسمة للحديث شهورا لاحقة عن هذه الحادثة، ولا أحد يشعر مثل شعور أسرة اللواء نبيل فقد كانت نازلة هائلة وفجيعة فظيعة لزوجته وأبنائه وبناته، حيث تركت نفوسهم مولهة، وعقولهم مدلهة، أجهشوا في البكاء والنحيب، وأعلنوا الصياح والضجيج أثناء تشييع جنازته العسكرية الضخمة التي حضرها قيادات ذات مستوى عالٍ من الدولة على رأسهم وزير الداخلية، ووزير الخارجية، وشيخ الأزهر، والسفير عادل عزت، الذي ظل أحمد شريف يرشقه ببصره طوال سير الجنازة وكأنه يخطط لضربته القادمة القاتلة .

وحدد وقتها في باله لما عامله ابن عمه في العزاء ببرود وتجاهل، واكتفى بمصافحته فقط، ولم يدلج معه في أي حديث، هز أحمد رأسه ثلاث هزات من أعلى لأسفل وقال في نفسه وهو يشفنه في بغض وعداء وكره فاتك:

ــ سأحطم كل أحلامك يا عادل، فالأهب لاستئصالك مأخوذة وسيوفي لقتالك مشحوذة، سأراك وليست لك عين طارفة ولا جثة واقفة، بعدما ينزل بك قاطعات الأعمار إما ذل واستكان وإما هلاك وانتحار

كسيادة اللواء نبيل الوحيدي .

ثم جر هو حديثًا معه فمال على أذن عادل وقال:

ــ لقد سمعت أنك مرشح لتولي حقيبة وزارية في التعديل الوزاري القادم .

لحظه من جانب أذنه، والتفت إليه متعجبًا وقال:

ــ سمعت مِن مَن؟

ــ الظاهر أنك غفلت عن منصبي وسلطتي في مباحث أمن الدولة العليا .

ــ ربنا يكفينا شركم، لكن هذه أمور محتملة ولم يثبت شيء بعد لقد سمعت مثلما سمعت تمامًا ولا أعرف هل سيتم هذا الأمر أم لا؟

ــ لا، اطمئن إن شاء الله سيتم هذا الأمر، وستتولى هذا المنصب لأنك أحق به وصحيفتك بيضاء، وسوف تفرح وتسعد بهذا المنصب، كما ستسعد بالخبر الذي أكنه لك .

ــ أي خبر؟

ــ خبر سعيد ستعرفه في وقته

ــ لقد أقلقتني، تكلم، ما هذا الخبر؟

ــ ليس هذا الوقت وقته، سأزورك في شقتك قريبا، وسأطلعك عليه، فلا داعي للقلق إنه خبر سعيد، سعيد جدًا.

لم ينتظر أحمد كثيرًا، وذهب إليه في شقته الفخمة في الزمالك، وهو يحمل صورة من مذكَّرات والده فيما يخص السر المتعلق بزوجة عمه

وابنها، أولجه الخادم حجرة الضيوف، وظل ينتظره كثيرًا فطما الغضب إلى عينيه، فهمَّ بفتح باب الحجرة والرحيل إلا أنه وجده أمامه يعتذر له، وهو يلج الحجرة:

ــ اعذرني على التأخير يا أحمد بك، فوقتي مشغول جدًا .

ــ كان الله في عونك .

ــ وفي عونك .

(وجلس واضعا اليمنى على اليسرى) اتفضل اجلس لماذا تقف؟

وجلس أحمد وهو ينظر إليه، ثم قال له عادل في لا مبالاة:

ــ أخبرني فخري أنك تريدني، ماذا تريد؟

ــ أنسيت كلامي لك عن الخبر السعيد؟

ــ أي خبر؟!

ــ ألم أقل لك في عزاء عمنا نبيل عن خبر سعيد يخصك سيفرحك

ــ آه، تذكَّرت، ما هذا الخبر السعيد؟

ــ ألم تفكر قليلًا في كنه هذا الخبر وعن أي شيء يتعلق؟

ــ بصراحة لم أفكر فأشغالي كثيرة، ووقتي ضيق، والفترة الحالية أنا مضغوط فيها ضغطة شديدة، ولم أشغل بالي به لأني أظن أن أي خبر من ناحيتك سيكون خبرًا غير ذي أهمية .

انشقت شفتاه عن ابتسامة هزيلة ثم قال:

ــ لقد أخطأت، فهو خبر شديد الأهمية لك بدرجة هائلة، سوف تتوقف عليه حياتك القادمة، وسيرهن به مصيرك، وربما ...

قاطعه في غضب وقد أنزل رجله اليمنى من على اليسرى واعتدل في جلسته:

ــ مهلا، مهلا، ما هذا الكلام؟ تكلم ما هذا الخبر الخطير الذي سيفعل كل هذا؟

وضع أحمد رجله اليمنى على السرى وأرجع ظهره للخلف وقال بكل ثقة:

ــ الخبر الخطير هو أنك أخي .

صمت ودهش وأرجع ظهره للخلف هو الآخر، وفكر ثم ضحك وقال:

ــ صحيح كلنا إخوة.

ــ ليس كما تظن، أنت أخي من أبي .

ــ أخوك من أبيك؟!

وفكر وهبّ واقفا وصرخ :

ــ أجننت يا أحمد؟

وقف أحمد في برود والأوراق في يده، وقال:

ــ اهدأ يا عادل بك، فأنت على شفا جرف من منصب رفيع، والانفعال ضار لك اهدأ كي نكمل حديثنا .

ــ ماذا تقصد بقولك ذلك؟

ــ أقصد أن أباك الحقيقي هو أبي شريف محمد الوحيدي، وليس عزت محمد الوحيدي .

اندهش القلب، وارتعش البنان، وأشاطت بنفسه بلابل الوجوم والذهول المشتتة، وفقد الاصطبار والجلد وقال:

ــ ماذا تقول أيها الوقح؟

ــ اهدأ واسمعني ولا تسب، أنا مقدر موقفك، لكن يجب أن تعرف أنَّك أخي وأبي هو أبوك الحقيقي لا الزائف، أنت وأنا من صلب رجل واحد هو شريف الوحيدي، وخذ اقرأ هذه الأوراق، هذه صورة من مذكَّرات أبي الجزء الذي يخصك، وفيها اعتراف كامل بأنَّك من صلبه .

تلعثمت شفتاه واتسعت عيناه وسكنتا، وارتعشت يده وهي تسعى لتمسك الأوراق، وحول نظره عن وجه أحمد، وحدق في الكلام المكتوب وأحدّ النظر فيه يجول بنظره على السطور، وأحمد ينظر إليه في شماتة .

مرت دقيقة وكانت الطامة، طار لبه من النازلة الهائلة، والفجيعة العظيمة، وزلزلت الأرض من تحته، قد هدته الصدمة وأطال الانخزال والانخفاض، وفضت الأعضاء، وملأت صدره ارتياعًا، وقسمت لبه شعاعًا، وتركت عقله مجروحًا، وكبده مقروحًا، ودمعه مسفوحًا، وقواه مهدودة، فانهدت أصلابه، وخر على الكرسي والأوراق في يده .

نظر أحمد إليه وهو مبتسم شماتة ثم قال:

ــ هذه النسخة لك اقرأها بتمعن، وإن لم تكن مصدق المكتوب، فاذهب إلى والدتك واسألها ولح عليها في السؤال، ولا تتركها حتى تقول لك الحقيقة، بإذنك .

وخرج من الحجرة، فوجد الدكتورة ليلى زوجة عادل تنظر إليه في

ضيق، ابتسم لها ومد يده ليصافحها، نظرت إلى يده في اشمئزاز وتركته وولجت الحجرة إلى زوجها، فوجدته منكسا رأسه ومطرفا بصره، قالت:

ــ ما الأمر يا عادل؟

رفع رأسه، والدموع مسفوحة على خديه، زوت وجهها وضيقته واقتربت منه ووضعت يده على كتفه وقالت:

ــ لماذا تبكي يا عادل؟ ماذا قال لك ابن عمك هذا؟

مسح دموعه بأنامله وانتصب واقفًا، وقد استجمع بعض قواه الواهنة وقال:

ــ أمي ... لابد أن أذهب إليها .

قالت في حزن:

ــ ماذا جرى لها ؟ هل حصل لها سوء؟

نظر إليها، وعيناه حشو جفونها النار:

ــ لا أدري، سأذهب إليها وأعرف ما بها .

ــ سآتي معك .

ــ لا، لا، سأذهب وحدي، ابقي أنت مع الأولاد، أنا لن أغيب كثيرًا إن شاء الله

.....

وكانت المواجهة بينه وبين أمه في شقتها في مصرالجديدة، اندهشت من قدومه المفاجئ إليها دون سابق إعلام، برقت عيناه ورعدتا وهو موجه بصره إليها، قامت ترفع سجادة الصلاة وهي مندهشة من صمته

ونظراته، طوت السجادة والتفتت إليه قائلة:

ــ ما الأمر يا عادل يا ابني؟

ــ أريد أن أكلمك في موضوع مهم وخطير للغاية .

ــ أقلقتني يا عادل، اجلس أولًا، واهدأ وخذ نفسك وأخبرني ما الأمر؟

وجلست هي على كرسي مذهب وظل هو واقفًا يحملق فيها في برق ورعد، قد أبرزت عيناه صفحة المكاشفة قبل لسانه، ثم نطق لسانه بالصاخة التي أقضت مسامع أمه:

ــ أنا ابن من؟ من أبي الحقيقي؟

كانت جملة صاخة على أذنيها، ارتاع لها قلبها، وملكها الوهل والخوف، وهبت منتصبة وهي دهشة الفؤاد:

ــ ماذا تقول يا عادل؟ أجننت؟

ــ أنا لم أجن بعد، ولكني على شفا الجنون، وقد يكون هو مصيري إذا لم تصدقيني القول أو ربما الانتحار .

فزعت من كلامه، واقتربت منه، وقالت في شفقة:

ــ جنون وانتحار ! لماذا يا ابني؟ أبك شيء؟

ــ بي العار والخزي .

ــ ماذا؟

ــ من أبي الحقيقي يا أمي؟ أرجوك، تكلمي .

ــ أبوك هو المرحوم سيادة السفير عزت محمد الوحيدي

ــ لا، هذا ليس أبي الحقيقي .

وكأنها صاعقة جحظت لها عيناها، وتقطر وجهها عرقًا وقالت:

ــ ماذا تقول يا عادل؟

ــ أقول الحقيقة، أبي الحقيقي هو الدكتور شريف محمد الوحيدي عمي، شقيق أبي، أتنكرين ذلك؟

ــ لا .... لا .... أكيد أنَّك جننت، أنت لست ابني الذي أعرفه، أنت إنسان آخر ماذا تقول؟

ــ أرجوك يا أمي، قلي لي الحقيقة، أنا تائه حائر أكاد أن أجن، لا أعرف لي ساحل أرسو عليه، إن لم تخبريني الحقيقة سأقتل نفسي من أبي الحقيقي؟

صرخت به ودموعها تبرق في عينيها:

ــ قلت لك أبوك عزت محمد الوحيدي الذي حملت اسمه طيلة هذه السنين .

ــ ولكن أحمد شريف قال لي كلامًا آخر، وقدم لي دليلًا واضحًا .

ــ ماذا قال لك؟ وما هذا الدليل الواضح؟

ــ قال لي أن أبي الحقيقي هو أبوه شريف، والدليل هو اعتراف أبوه الواضح بخطه في مذكَّراته من أنك استجبت لإغوائه و ..... و .....

لم يستطع إكمال الجملة، وسحت عيناها بالدَّمع وقالت وقلبها يرتجف:

ــ أكمل كلامك، لماذا سكت؟

ــ وزني بك.

قالها بسرعة شديدة، وهو خجل من نفسه قد دنقس عينيه وألزمهما

الأرض، وذرت أمه على المقعد وهي مسكتة، قد نكأ قلبها ما سمعت وأحر كبدها وأقرحها، وترك نفسها موهلة، وعقلها مدله، فشرقت عيناها بالدموع، واتقدت نيران بين الأحشاء والضلوع وأطلقت زفرة وأنة وحسرة، برق بصره، واشتد غضبه وصاح بها:

ــ صارحيني يا أمي، لا ترميني بيدك إلى التهلكة، هل كلام هذا القذر أحمد وما قرأته في مذكَّرات والده صحيح أم لا؟ هل حقا زنى أبوه بك وكان ثمرة هذا الزنا أنا كما قال أبوه في مذكَّراته؟ صارحيني أرجوك .

وطال صمتها فجرى على المطبخ وعاد بالسكين، حمجت عينا أمه لما رأت السكين في يده، وتحركت شفتاها ناطقة:

ــ أتريد أن تقتل أمك يا عادل؟

ــ لن أقتلك

وصوب السكين إلى صدره وقرب سنها من موضع قلبه وأكمل قائلًا:

ــ بل سأغرسها في صدري أمام عينيك إن لم تخبريني الحقيقة .

هبت من فورها واقفة وهي مذعورة موهلة وجلة يداها ترتعشان، وفؤادها يرتجف، وجسدها كله يهتز، ومدت يديها نحو ابنها وهي تقترب منه، وتقول:

ــ لا يا عادل، لا تقسُ على نفسك، ولا تطاوع ذلك الشيطان الذي أفسد عليك حياتك، ولا تنخرط في سلكه، أنت ابني وابن أبيك عزت محمد الوحيدي وأنت من صلبه .

نظر إليها والدموع تغسل خديه:

ــ لا، أنا لا أصدقك .

ــ لا، صدقني، هذه هي الحقيقة، والله العظيم أنت ابني من بطني ومن صلب عزت الوحيدي .

ــ وجريمة الزنا التي قرأت تفاصيلها بعيني

فقالت والدموع تسح على خديها:

ــ هذا كذب وافتراء، أنا لم أزن في حياتي، فأنا شريفة عفيفة، فهل تصدق كلام ذلك الفاجر عني يا عادل؟

ــ أنا ... أنا تائه، لا أعرف أأصدقك أم أصدق ما قرأت؟ وهذا القذر ابنه سيدمرني بتلك المذكَّرات .

تتألق دموعه في عينيه وتتلألأ، وهو يكمل كلامه:

ــ أنا غريق في لجة بحر عميق، لا أعرف كيف أصل إلى الساحل،ولا أرى سفينة نجاة أمامي، أرجوك يا أمي، اصدقيني القول، لا تقتليني بيدك، من أبي الحقيقي؟ هل هو عزت محمد الوحيدي حقا أم ذلك الفاسق الفاجر شريف؟

ــ لقد قلت لك الحقيقة يا بني، وأقسمت على ذلك، وليس لي كلام آخر، وافعل ما بدا لك .

أسف النظر إليها ثم طرف عينيه وارتعشت يداه، وطاح منها السكين، وذرا على أرض الشقة جاثيًا على ركبتيه يأن ويخن ويعلن الصياح والنشيج، والعواء والضجيج مبللا فرش الصالة الأنيق بدموعه التي هتنت بها

عيناه، فتواترت وتوالت تنسدر منهما غاسلة الفرش الأوروبي الأنيق .

مالت عليه أمه تربت على كتفه وعيناها تهدران دمعها على خديها، لم يقبل عطفها وحدبها، ونحز يدها في جفاء، وانتصب واقفًا محركًا رأسه يمينًا ويسارًا وهو يحدق فيها ويقول:

ــ في قلبي شك، في قلبي شك من كلامك .

وهرع مسرعًا إلى الشارع، تاركًا أمه في حالة من الذهول والسكوت .

خرج إلى الشارع حائرًا تائها، ترك سيارته وسائقه الخاص أمام العمارة التي تسكن فيها أمه، وهام على وجهه لا يعرف وجهته دار دورته في بعض الشوارع، حتى وجد نفسه واقفًا أمام أحد الجوامع العتيقة، نظر حواليه كالتائه الحائر .

والأذان ينبعث من مئذنة الجامع، معلمًا الناس بصلاة العشاء، وهو واقف حائر، ينظر للجامع ولا يتحرك، الأذان يتغلغل في أذنيه ورغم ذلك لم يحرك قدميه نحو الجامع، وأعرض فأعرض الله عنه، قد أصم الشيطان أذنيه، وغلبه فاستزله واستزل قدميه يقودهما للمنكر.

ركب سيارة أجرة إلى شقته الخاصة في شارع أحمد عرابي في المهندسين، وانغمس في لجة السكر، وأضاع كرامته وسطوته وأزال ركنه في ترنحه وتمايله في صالة الشقة وكأس الخمر في يده .

أحدّ النظر في التليفون الموضوع فوق منضدة صغيرة، وهز رأسه وقال بصوت سمعته أذناه:

ــ أمل هل التِّي سوف تنسيني وتهون علي وطأة الصعقة القاتلة .

وجاء ليمد يده رن التليفون، تعجب، وترددت يداه ورفع السماعة وسمع:

ــ أهلًا بك يا وزيرنا القادم

ارتعشت يداه، وهي ممسكة بالسماعة وقال بصوت متهدل النبرات:

ــ من؟ من معي؟

ــ أنا الذي قاد نحوك الحتوف وأبرق نحوك السيوف

صرخ به:

ــ أنت ! أنت أيها القذر، أيها القذر لن تغلبني، لن تقصني فمازالت في كامل قوتي، وإفكك لن يتمكن مني، وأنا أنصحك أن تبتعد عني وألا تتردد في مرابض الأسود ومكامن الأراقم .

ضحك أحمد حتى قهقه وقال في برود:

ــ أتهدد وتحذر رأسًا من رؤوس أمن دولتك، يستطيع أن ينهكك ويتعبك، وسوف تعرف مصر كلها ويعرف العالم حقيقتك، سوف تنشر هذه المذكَّرات على الملأ، وسوف تطبع في كتاب، وسوف تكون فضيحتك هي فضيحة القرن والقرون القادمة .

ــ ابعد عني يا قذر، سأقتلك إذا اقتربت مني وحاولت أن تهدم حياتي ومستقبلي .

ــ أنا لن أهدم حياتك، لأنها هدمت بالفعل وانقضت جدرانها .

ــ لا، لا

ــ ومستقبلك تفحم وصار رمادًا وغثاء باليًا.

ــ لا، لم تهنِ قوتي بعد ولن تستطيع، وسوف أسحقك عندما أعتلي عرش الوزارة .

ــ لن تصير وزيرًا أبدًا .

ــ اخرس يا كلب .

ــ كيف تكون وزيرًا وأنت ابن زنا ابن حرام من عمك أخي والدك؟!

تفصدت جبهته عرقًا، وغارت عيناه، وانتفضت يداه، والآخر مازال ينفث سمومه القتالة:

ــ لن يقبل رئيس الدولة أن يكون أحد وزرائه ابن زنا وليس ابنًا شرعيًا، إنك لواهم، قد وردت بوهمك أوخم المناهل، وليس أمامك سوى حل واحد أن تنهي حياتك بنفسك في هذه الحالة ممكن أصرف نظر عن نشر هذه المذكَّرات .

انهد ركنه وخر على كرسي بجوار المنضدة، وتلعثم في الكلام وهو يقول:

ــ ما ... ماذا ..... ماذا تقول يا قذر؟

ــ أقول ما سيحدث، إن لم تتخلص من نفسك، ستنشر المذكَّرات قريبًا وسوف يقرأها العالم، وسوف تكون حديث الصباح والمساء ستكون حديث العامة والصفوة، وستتمرغ أنت وأسرتك في الوحل زوجتك وبناتك وابنك، ستكون مفاجأة العصر، ستكون الضربة القاضية لك يا ابن عمي، أقصد يا أخي .

هوت السماعة من يده، وكأنه عاين هول المطلع،فلم يبق له جثة واقفة

ولا عين طارفة ولا روح تسري في جسده، بل طارت بقوادم وجل، وطاح بين سقوط أمل، ودنو أجل، فخطى في ارتعاش نحو المطبخ.

أبرقت عيناه وهو ينظر إلى سكين رفيعة لقطع الفواكه، ارتعشت يده وهي تقترب لرفعها، قربها من عينيه المترعتين بالدَّمع، ثم أغمض جفنيه وتماسكت أعضاؤه وغرس السكين في صدره، وفتح عينيه ونظر فوجد السكين في صدره والدماء تسيل، ففزع وذعر وهرع مسرعًا من المطبخ إلى الصالة وهو يصرخ بصوت يموت:

ــ لا، لا، لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت، فمازالت أمامي أحلام كثيرة لم تتحقق، لا ...، أريد أن أعيش كي أحقق أحلامي ولابد ..

وأغرق النزع، ولم يستطع جسده التماسك، فانقض على الأرض كالجدار وروحه تنتزع من جسده، وهو يقاوم ويعافر ويتماسك ولكن الموت كان أقوى من مقاومته .

فأخذ يسري في جسده سريان الريح في الصحراء، وهو يتأوه وكلماته لا تكاد تخرج:

ــ آه .... آه ..... لا .... لا ..... أريد أن أحيّا ولو ليوم ولو لساعة كي أصلي لله ركعتين، كي أتوب .

رن التليفون، وقطع كلامه، ارتفعت يده في ارتعاش واهتزاز وأمسك السماعة فقال بصوت خائر:

ــ مَن؟

ــ أنا خيري يا عادل بك، اتصلت بك في شقتك في الزمالك فلم

أجدك، فتوقعت أن تكون هنا، مبروك، مبروك يا عادل باشا أصبحت وزيرا لـ.....

ابتسم ابتسامة موؤدة وذرت السماعة من يده بعدما استهلكه الموت واستنزفه .

ومات عادل منتحرًا كما أراد الشيطان المتزي بزي إنسان، فهز رأسه مبتهجًا بالفجيعة التي هزت مصر كلها في جميع الصحف والمجلات الحكومية والخاصة المحلية والعالمية

قرأ الخبر في عدة جرائد ومجلات متنوعة بعناوين متنوعة:

«لغز انتحار مرشح لوزارة سيادية»

«مقتل وزير لم يتول الوزارة»

«قتل أم انتحار»

«مقتل السفير عادل عزت في ظروف غامضة»

«لماذا انتحر الوزير عادل عزت»

«غموض مقتل الوزير عادل عزت قبل توليه الوزارة»

لم تهدأ نفس أحمد كما كان يعتقد بل زاد غليانها، وتطايرت حمم حنقه الخانقة في عينيه، فتغير لونهما، وطوح الجرائد والمجلات من على مكتبه، ومزق الجريدة التي كانت في يده،ووقف والدنيا تدور به حتى ضاقت عليه هي ونفسه، وظل يغالب غيظه وهو يغلبه، فلم يرو عطشه انتقامه الدموي، بل طما فوران بركانه وشعر بأن السماء تنطبق على أنفاسه، وحشرج صدره، واختنق صوته فلم يخرج، وظن أن الموت يسعى إليه،

وظن أن لا ملجأ ومهرب منه إلا الفرار من شقته اللعينة التي عاش فيها حاضره القذر البغيض إلى ماضيه التعس في الشقة القديمة التي عاش فيها طفولته وصباه وجزء من شبابه مع أمه الحسناء .

نفض الشقة بعينيه، فتقزز من منظرها القبيح وروائحها الكريهة التي تنبعث من كل ركن وشبر فيها، اشتم رائحة طفولته القذرة تفوح من كل شبر فيها، ورآها تتراءى أمامه مغطاة بالتراب العدملي لم يغمض عينيه عنها، بل أخذ يحد النظر إليها شاحنًا نفسه؛ ليخرج ذلك الماضي البغيض من قبره السحيق قبل أن يترك هذه الدنيا، ويلقى نفس مصير أبيه وأمه وعمه وابن عمه .

الفهرس

1 - البحث في الماضي 5

2 - حياة الرماد ... حياتي 18

3 - حياتي في أوروبا 71

4 - الرجوع الناقص 164

5 - مبروك الطيب 169

6 - الرحيل الصامت 187

7 - الأسرار القاتلة 210

أوراق للنشر والتوزيع

awraaq@live.com